

التراث وإشكالياته الكبرى

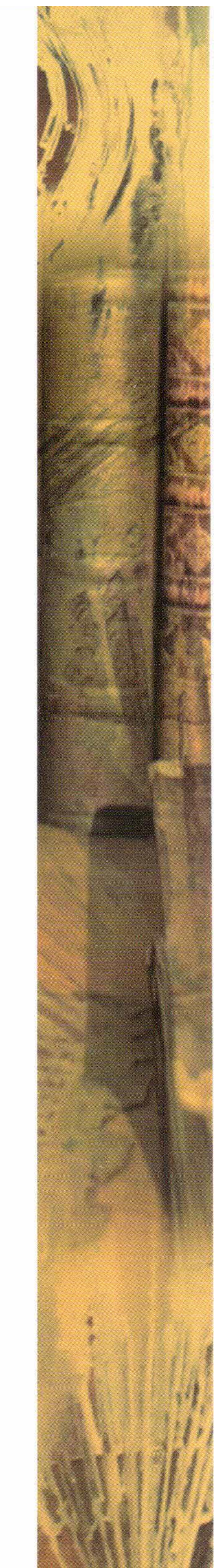
نحو وعيٍ جديد بأزمتنا الحضارية

سلسلة أدوات القادة (١٠)

د. جاسم سلطان







هذا الكتاب

لا يزال عالمنا العربي وربما الإسلامي مسكوناً بأزمات السطح، مثل: الفقر والجهل والمرض والحروب، فعالم المشاريع الكبرى هو الأكثر تخلفاً في العالم ومن تحته عالم علاقات بينية يسوده الاحتراب؛ وفي العمق عالم أفكار يفتقد المنطق القويم يعيش على الشعارات والأفكار غير المحررة.

ولا يزال سؤال التجديد هو الأقوى بين كل الأسئلة المطروحة، فمنذ حملة نابليون مروراً بكل المصلحين من أمثال الأفغاني وعبده والكواكبي والبربروسي وصولاً إلى المعاصرين، ولا يزال موضوع بحث لأنه لم يستنفد معطياته ومبررات وجوده، وفي هذا السياق تناثرت الكتابات والمؤتمرات لمحاولة التشخيص ورسم طريق المستقبل.

هذا الكتاب يبحث الموضوع ذاته، ولكن من خلال رؤية تراكم العوامل المنتجة للمشهد الحالي وهو محاولة لعرض جانب من أهم الجهود القائمة لفك شيفرة هذه التحديات وإيجاد العلاجات لها.

والكتاب يهدف إلى توفير أرضية سريعة للقارئ حول أخطر العوائق التي تحول دون بلوغ الأمة غاياتها من خلال معطيات الدين. وبيان أن الدين بوصفه معطى خاماً لا يعمل في الواقع إلا من خلال أفهام الناس، وأن هذه الأفهام عرضة لثلاث مشكلات كبيرة هي: المعطيات السياسية الضاغطة على وعي العطاء الفكري؛ والمعطيات الاجتماعية التي تجعل التقاليد والأفهام عناصر ضغط شديد على المشتغلين بالفكر والوعي؛ وقصور مناهج البحث بوصفه نحتاً بشرياً وآلة للتواصل مع النص ومع الواقع.

الثمن: ٦ دولارات
أو ما يعادلها

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ القاهرة ـ الدار البيضاء

المكتب الرئيسي ـ بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ ـ ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabiyanetwork.com

ISBN 978-614-431-090-8



التراث وإشكالياته الكبرى

(نحو وعي جديد بأزمتنا الحضارية)

التراث وإشكالياته الكبرى

(نحو وعيٍ جديد بأزمتنا الحضارية)

د. جاسم سلطان



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING



الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
سلطان، جاسم
التراث وإشكالياته الكبرى (نحو وعيٍ جديد بأزمتنا الحضارية)/
جاسم سلطان.
١٧٥ص.
ISBN 978-614-431-090-8
١. التراث الإسلامي. أ. العنوان.
297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥
مدير المشروع: أ. جمال المليكي
المتابعة والتنسيق: أ. أحمد درويش

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - المكتب الرئيسي: رأس بيروت - المنارة - شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com
القاهرة - مكتبة: وسط البلد - ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥ محمول: ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail: info@arab-network.org
الدار البيضاء - مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ محمول: ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org

المحتويات

الدين والتديُّن

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب هو رحلة عمر مع التراث في محاولة التعرف إلى الأجزاء التي تؤثر في فاعلية الأمة اليوم ولم يكن له أن يكون لولا النقاشات المستمرة مع كثير من أهل العلم، ومن طلابه الذين أثْرَت مناقشاتهم هذا الكتاب، ولكن لكثرتهم يصعب تسميتهم والشكر موصول لهم جميعاً... والشكر لا بد من أن يصل إلى حاضنتين مهمتين: حاضنة العمل ويأتي على رأسهم فريق المكتب أحمد وعلي وياسر وجمال الذين كانوا حاضرين دائماً في الحوارات الشيقة والمتنوعة التي أثرَوا بها أفكار الكتاب.. وحاضنة المنزل ذلك الحضن الدافئ وهو الأسرة؛ فللزوجة العزيزة والأولاد والحفيدة الغالية، التي شرفتنا بقدومها فأنارت البيت، أجر المودة والرحمة وتفريغي لهذا العمل الذي تأخر كثيراً في الظهور...

مقدمة

الحاجة إلى البحث في هذا الموضوع المهم لا يعدلها شيء؛ فعقارب الساعة تتسارع والأحداث تزداد وتيرتها، وكلها تشير إلى عصر جديد قادم وافتتاح هذا العصر المطلوب هو ابن الإطلالة على ما خلّفه الزمن في فضائنا من معيقات، وتخليص فضائنا الفكري من تلك المعيقات، وهو المقدمة الطبيعية لتحرير عالم العلاقات ومن ثَم عالم المشاريع المتعثّر في عالمنا العربي والإسلامي.

فعالمنا العربي وربما الإسلامي الأرحب مسكون بأزمات السطح، مثل: الفقر والجهل والمرض والحروب، فعالم المشاريع الكبرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع والصناعة والزراعة والتجارة هو الأكثر تخلفاً في العالم ومن تحته عالم علاقات بينية يسوده الاحتراب؛ فلا تكاد تجد مجتمعاً لا تنخره أمراض الحزبية والجهوية والطائفية والمذهبية، وفي العمق عالم أفكار يفتقد المنطق القويم ويعيش على الشعارات والأفكار غير المحررة.

سؤال التجديد ما زال هو الأقوى بين كل الأسئلة

المطروحة، فمع مرور قرن ونيف على بداية السؤال الذي يمكن التأريخ له مع بداية ضعف الدولة العثمانية، وتفاقمه مع حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨م)، مروراً بكل المصلحين من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وخير الدين البربروسي إلى المعاصرين، وما زال السؤال مطروحاً؛ لأنه لم يستنفد معطياته ومبررات وجوده، وفي هذا السياق تناثرت الكتابات والمؤتمرات لمحاولة التشخيص ورسم طريق المستقبل.

وهذا الكتاب هو محاولة أخرى لبحث الموضوع ذاته، ولكن من خلال رؤية تراكم العوامل المنتجة للمشهد الحالي التي تتناثر في كتابات كثيرة، في الغالب، ومحاولة لعرض جانب من أهم الجهود القائمة لفك شيفرة هذه التحديات وإيجاد العلاجات لها.

والكتاب يهدف إلى توفير أرضية سريعة للقارئ حول أخطر العوائق التي تحول دون بلوغ الأمة غاياتها من خلال معطيات الدين... وبيان أن الدين بوصفه معطى خاماً لا يعمل في الواقع إلا من خلال أفهام الناس، وأن هذه الأفهام عرضة لثلاث مشاكل كبيرة هي: المعطيات السياسية والمعطيات الاجتماعية وقصور مناهج البحث؛ فالمعطيات السياسية الضاغطة على وعي العطاء الفكري وفضائه تعمل على تحجيم النشاط المعرفي المشكِّل للوعي الجمعي، وبالتالي ففضاء أسئلة الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية يصبح منطقة خطرة للتناول، ويفضل كثيرون الابتعاد عنها بسبب المخاطر التي تُحيط بها. والمعطيات الاجتماعية ومعارف كل عصر تجعل التقاليد والأفهام عناصر ضغط شديد على المشتغلين بالفكر والوعي، وبالتالي يتم

صب المنظومات القرآنية المفتوحة لكل عصر في وعي عصر محَدد فتكتسب شكله. . . أما قصور مناهج البحث، فالمنهج بوصفه نحتاً بشرياً وآلة للتواصل مع النص ومع الواقع، فكل قصور فيه سيعني بالضرورة قصوراً في المنتج، وهذا المنتج عندما يعامل باعتباره منتجاً لكل العصور من دون الوعي بأن المناهج أو الآلة التي نزن بها هي عرضة لقصور مؤكد، بحكم كونها منتجاً بشرياً، فالبشرية كلما تطورت في المناهج كلما دقت قدرتها على وزن الأمور، فلو بقيت المكاييل والموازين كما هي لما أمكننا قياس النانو اليوم.

والكتاب رُتب بفصل **تمهيدي** كتوطئة لمعرفة علاقة البحث بإنتاج عصر جديد وبيان مفهوم العصر الجديد، وتبعه فصل **ثانٍ** لبيان أثر التاريخ وعلاقته بالأسئلة المؤجلة التي ما زالت عالقة في فضاء الأمة، ثم فصل **ثالث** جوهره بيان أوجه القصور واحتمالات التجديد في فضاء العلوم الإسلامية بوصفها مناهج، وبوصفها منتجات. وكل هذه المنتجات هي اليوم بقدر ما تشكل من روافع للعمل، فهي تشكل بقصورها، أيضاً، جزءاً من عوائق كبيرة تحول دون التصدي لتحديات هذا العصر ومتطلباته.

الفصل الأول

تمهيد

أمة في أزمة

أمة تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما يغزل غيرها، وتعيش على العلوم التي ينتجها غيرها، وتتطبب بالدواء الذي يقدمه غيرها، وتحارب بالسلاح الذي يصنعه خصمها وتحمي سماءها بالدفاعات التي لا تنتجها، وتنتقل وتتصل بوسائل يتحكم فيها غيرها ولا تبذل أي جهد للخروج من هذا المأزق التاريخي؛ لهي أمة تحتاج إلى علاجات كبرى وصدمات للوعي تتناسب مع حجم خمولها.

إن السياقات الفكرية السائدة في مجتمعاتنا ما زالت تعتقد أنها تعيش في عصر الخيل والسيف والرمح فإن ارتقت اعتقدت أنها مسألة كلاشينكوف وحزام ناسف، وهي غافلة تماماً عن حجم الفارق بين العصور وبين الأسلحة والتسلح... فالعلم حوّل كل شيء إلى فجوة معرفية... ولا توجد معجزة ما ستخرق سنن الله المستقرة لتعطي الغافلين قصب السبق من دون إجابة عن أسئلة الحياة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والزراعة والصناعة لا لسبب إلا حسن النوايا...

اليوم وفي أوضاع الأزمات التي تعيشها المنطقة، وكثافة الترويج لأفكار، مثل: الدولة الإسلامية والخلافة تنتشر العنف والجماعات المسلحة التي تتغذى على الوهم. . . هي تعتقد أن حل مشكلة الأمة لا يحتاج إلا إلى قلب جسور واستعداد للموت ورشاش وحزام ناسف؛ فتسارع إلى إعلان دول وهمية تفتقد أبسط مقومات الحياة، وما أن تعلن عن خليفتها حتى تدب فوضى أكبر وأكثر مما كانت، فتشتت قواها وتصبح مطاردة لتعود إلى المسار ذاته مرة أخرى من دون أن تدرك أن مشكلة الأمة ليست من خارجها ولكنها في منظومتها المعرفية الأعمق، وأن الواقع الخارجي هو نتيجة قرارات كبرى متعلقة بالسياسة والاجتماع والعلم، تم تبنّيها منذ قرون، ولم يكن لهذه القرارات التي تحولت إلى ملازم فكري ومسلّمات موهومة إلا أن تنتج هذه الحالة.

ثلاثة أنواع من القراءات للتاريخ

والناس تعود إلى الماضي وفي ذهنها ثلاثة أشياء: فبعضٌ يريد صوراً مشرقة ينقلها إلى الجيل لرفع معنوياته، وهو في هذا ربما يعمل على حجب الرواية كاملة، إن لم تكن تخدم غرضه أو سيعمد إلى صناعة دفاعات متينة واعتذارات كبرى حتى يمرر فكرته، وهذا هو السلوك الشائع. . . فآلية الحجب والتمرير وصناعة الدفاعات عن الأخطاء التاريخية شرط لهذا النوع من زوّار التاريخ. . . وبعض يعود إلى الماضي للبحث عن حلول لواقعه العصي؛ لعل نموذجاً تاريخياً ما يسعفه ويصبح له قدوة؛ فالحركيون يريدون من السيرة أن تجيبهم عن خطة النجاح الحركي، والمقاومون يريدون من صلاح الدين أن يخطط لهم

للتحرير... والسياسيون يريدون من العُمرين أن يحلّا لهم مشكلة النظام السياسي الأمثل... فالعجز عن مواجهة استحقاقات الحاضر يقود إلى البحث في دفاتر الماضي، وبعض يبحث في التاريخ عن جذور مشاكل الحاضر في عمقها المعرفي الدفين في بيئتنا التراثية، وهذا الكتاب من ضمنها.

اليوم تكثر الدراسات التاريخية ولكل هدفه، ولكن من المهم التفريق بين العودة إلى الماضي وقراءته لاكتشاف أوجه الخلل، وبين قراءته لرفع المعنويات وقراءته للبحث عن حلول للحاضر... نحن حين ننظر إلى معظم قراءاتنا التاريخية نجدها عبارة عن تقريض للذات، وهو في ذاته ليس أمراً سيئاً؛ فللتاريخ دور وظيفي في رفع الهمم ولكن حين يبالغ في ذلك يصبح سلاحاً فتاكاً في مصادرة الوعي بالمشاكل التي قادت الأوضاع إلى ما هي عليه اليوم؛ فيعتقد من يعتقد أن الواقع المعاصر هو ابن عطاءات أبناء هذا القرن فقط، وليس رحلة تاريخية كان نتاجها هذا القرن؛ فالتخلّف لا ينشأ فجأة ولا سكتة قلبية بل مرض مزمن يفعل فعله بالتراكم عبر قرون... وإشراقات بعض لحظات التاريخ القديم يجب أن لا تحجب خطوط القصور التي شكلت الواقع الحالي الذي نعانيه، ولو كان الماضي كله، أو حتى أغلبه، مشرقاً لما كانت اللحظة القائمة موجودة أصلاً.

وأخطر من القراءة التي تستهدف رفع المعنويات هي القراءة التي تبحث في الماضي عن حلول للحاضر، وهي تعتقد أن هناك حلاً سحرياً موجوداً في مكان ما في التراث لم يتم فكّ النقاب عنه حتى الآن، ويمكن استدعاؤه للإجابة عن أسئلة

الحاضر ولك فقط أن تقرأ أدبيات الحركات الإسلامية في تنقيبها عن الخطة التاريخية الناجحة المدفونة في التراث، أو عن أشكال النظم السياسية القديمة باعتبارها أساساً للواقع، ولكن رحلة التاريخ التفصيلية تقول إن ما نبحث عنه ليس موجوداً... ليس هناك حل لشكل الدولة لأنهم كانوا هم أنفسهم محتارين فيها... ولم يكن هناك حل لمشكلة التداول فتولدت فكرة الغلبة... ولم يكن هناك حل لمشكلة الاختلاف حول سياسة الحاكم فنتجت مأساة عثمان (ﷺ)... ولم يكن هناك حل للاقتتال بين حملة السلاح فولدت الفتنة الكبرى... ولم يكن هناك حل للاستبداد فولد نظام الملك العاض... ولم يكن هناك حل لمشروع الوحدة فتقسمت الدولة عملياً على الأرض إلى سلطنات وخلافات... ولم يكن هناك حل للأمن القومي فدخل الصليبيون والتتار ومن بعدهم الغرب إلى بلاد الإسلام... التاريخ مدرسة نتعلم منها ربما جذور الإخفاقات وأسبابها الأعمق... فعمق الأفكار التي نحملها مدفون هناك، وهذه الأفكار هي التي تفعل فعلها في الواقع اليوم سواء كان سيئاً أم حسناً مضافة إليها مشاكل عصرنا.

القراءة الانتقائية وشروطها

فانتقاء لحظات الإشراق في التاريخ يجب أن يصحبها كثير من التنبيه على الغرض من ذكرها ومحدودية الاستنتاج منها، فتوسعة الاستنتاج وتعميمه من حوادث محدودة أو حقبات زمنية قصيرة ربما بسبب حاكم صالح مرّ، ولا يكاد يخلو من ذلك عصر ولا مصر، ولكن تعميم وجوده على كل ذلك العصر أو تلك الحقبة أو على كل العصور مشكلة في المنهج ومشكلة في

الوعي خطيرة؛ فهناك من المؤرخين من يصنع النظرية ثم يقتنص شواهدها من سِيَر الأشخاص ليفرض عليهم نموذجه المسبق، ولا يترك النموذج الحقيقي يعبّر عن نفسه لأنه لو عرض النموذج الحقيقي ربما خَفَت شعاعه وتلبدت صورته.

بين الخط الرئيس واجتهادات الأطراف

نحن بعدها، لا نفرق كثيراً، في الغالب، بين خط الأصل أو التيار الرئيس وخط الاستثناء، أو الحوادث والاجتهادات الاستثنائية؛ فالاجتهادات التاريخية في خط الفقه وخاصة في مسار السياسة ـ وعصرنا ليس استثناء ـ لا تخلو من علماء مستنيرين تجاوزوا سقف عصرهم ومعطياته فطرحوا حلولاً متقدمة ولكنها في الغالب هي خط الاستثناء الذي ربما لفظه التيار الرئيس في هذا العصر أو ذاك، فنحن عندما نقول بقصور الاستجابات إنما نتحدث عن الخط الرئيس أو الخط الحاكم ولا نقول بعدم وجود رأي هنا أو هناك تجاوز عصره.

لأننا وباستمرار نواجه عند الحديث عن الخط العام، في السياسة عبر التاريخ التي اتسمت بحكم الفرد، بالإشارة مثلاً إلى حاكم صالح هنا أو هناك سجّل موقفاً شورياً، مثلاً لنقول بعدها إن الماضي جميل... إن هذا النوع من النقاشات كثير فخط الفقه العام وموقفه من الدولة مثلاً لا يعني عدم وجود رأي أو رأيين هنا أو هناك مختلفين... فباستمرار يجب أن نميز بين الخط العام وبين الحالات الاستثنائية التي لم تشكل فارقاً في الأحداث.

ناتج الحراك التاريخي بين الإيجاب والسلب

الحراك التاريخي لا زاوية واحدة له، فهو ليس سلباً كله وليس إيجاباً كله، فهو كظاهرة بشرية تخضع للوعي البشري وتقلباته... فقد تركد رياح أمة في عصر لتبعث في عصر آخر.. وقدرة أي أمة تبرز في تجدّدها وإعادة إنتاج شروط الفاعلية فيها واليوم نحن نقف أمام تاريخنا، وهو تاريخ امتد من البعثة حتى اليوم ـ هذا لو استثنينا التاريخ العربي العام السابق للبعثة ـ نقف أمام هذا التاريخ كمعطى موضوعي مؤثر في حاضرنا بغض النظر عن موقفنا منه... والأمر لا يتعلق بالإدانة أو التمجيد، ولكن يتعلق بالاستفادة من الإنجازات الكبرى التي نتجت من هذا المخاض الطويل وتتمثّل في هذا الوجود الممتد عبر القارات كلها، والمتمثّل في من يحملون التراث العربي وروحه الإسلامية أو الإسلام وروحه العربية، وهم مجموعة بشرية تزيد على المليار بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، هو سؤال يتعلق باستعادة الفاعلية في هذه الملايين لدخول التاريخ وتشكيل قيمة مضافة للبشرية، ولا يتحقّق ذلك إلا بإعادة النظر في العوائق التي يحملها التراث لكل هذه الجموع الملتزمة به في رحلتها للتقدم.

مفهوم انتهاء عصر

كيف يعلن عصر ما عن وفاته؟ كيف تظهر ملامح انتهاء عصر ما؟ حين نتأمل التجربة التاريخية الغربية أو الصينية أو غيرها سنجد سمات متشابهة ولو ركزنا على أوروبا باعتبارها الفرس الأسبق اليوم سنجد أن العصور الوسطى بدأت مع دخول

الجرمان إلى روما، وأن الكنيسة صادرت بعدها الروح والعقل والجسد وأصبح الثوب الديني أضيق من احتياجات إنسان أوروبا... فكانت أوروبا تنمو سكانياً مما أدى إلى موجات الحروب الصليبية التي رغبت في تفريغ التكدس البشري الأوروبي في منطقة بلاد الشام، والحروب الصليبية انتهت بترجمة كل التراث العربي ـ في القرن الثالث عشر الميلادي ـ إلى اللغات الأوروبية فأحدث هذا حراكاً فكرياً كان أول طلائعه هو روجر بيكون ثم توالت التحولات؛ فأوروبا تريد أن تصل إلى الصين والهند عبر طرق لا تمر عبر البحر المتوسط وموانئه العربية، فتم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح واكتُشفت الأمريكتان، وتغيرت الموانئ الأوروبية فأصبحت مدناً جذبت إليها الناس من الأرياف؛ فنشأت الطبقة الوسطى التي طرحت فكراً جديداً يقوم على تحرير التجارة من سيطرة النبلاء على الطرق (دعه يتاجر... دعه يمر)، ومعها مطالب المشاركة في القرار السياسي وانفجرت المعرفة في أوروبا باكتشاف المطبعة في القرن الخامس عشر ومعها بدأت تضعف سلطة الكنيسة على الفكر ولم تعد أجوبة الكنيسة مقنعة... ولم يعد النظام السياسي والاجتماعي والتعليمي ولا مناهج البحث ولا أساليب الحياة وتراتيبها مناسبة للجماهير، ولا قادرة على تلبية أشواقها وتطلعاتها.

مفهوم بداية عصر

إن العصر الجديد يبدأ حيث ينتهي عصر سابق، ولكن تلك القطيعة لا تتم بقطع باتّ... قطع كالذي نحدثه بالسكين... ولكن كل عصر يمتد بذيوله إلى العصر اللاحق، فالعصر الجديد بطريقة ما يشكل اعتراضاً على عصر سبق ومسألة لمسلّماته،

وتصوراً جديداً بديلاً منه وقد يمتد الحوار ولا يتوقف عابراً لأكثر من قرن وعصر... كذلك كانت أوروبا؛ فحركة الأنسنة طرحت الإنسان باعتباره مركز النظر بدلاً من مركزية الإله التي كانت تتبناها الكنيسة، فكل شيء يتجه بثقله إلى الإنسان وحقوقه وملكاته وقدراته... تحركت الأفكار الدينية على يد مارتن لوثر وكالفن ونشأت حركة الاحتجاج... وتحرك الفكر العلمي فجاءت مبادرات كوبرنيكوس وغاليليو. ومن بعدهم بدأت ثورة المناهج على يد ديكارت وفرانسيس بيكون ثم انطلقت فلسفة الدولة إلى فضاء جديد بأطروحة العقد الاجتماعي، فلم يكن غريباً أن يولد العقل والثورات وعصر الآلة وتتابع الثورات بعدها. إنها ثورة باستمرار لتوسعة الثوب لمواجهة نمو الجسد الاجتماعي بحيث يتسع للجديد القادم.

لكن العصر القديم لا يُسلّم زمامه إلى عصر جديد قادم من دون مقاومة، فأبطال العصر الجديد باستمرار هم متمردون على السائد... متمردون على مفاهيم وتصورات قام عليها العصر السابق... مفاهيم لا تستمد سلطتها من قوة الدليل والبرهان ولكن من وجودها لفترة ممتدة في الزمن، بحيث ألفها الناس وأخرجوها من دائرة النقاش باعتبارها حقائق. ومن هنا، يأتي أبطال العصر الجديد ليثيروا التساؤلات حولها ويعيدوها إلى دائرة النقاش وهم حين يضعونها في دائرة الضوء لا يهدفون إلى هدمها لكن يهدفون إلى أن تخضع لمحكمة الدليل والبرهان فإن صمدت رحلت إلى العصر الجديد وإن فشلت بقيت في عصرها السابق، وبالتالي تواجههم السلطات الممثلة للقديم بأشرس ما عندها من أدوات، تلك طبيعة المرحلة وضريبتها.

تحديات إنتاج عصر جديد

اليوم في المنطقة العربية ثورات كبرى وأحلام كبرى وخيبات أمل كبرى هي شيء حرّك ركود الأفكار وجعل الجميع يتساءل عن الإطار الفكري السائد ومدى جدواه ومدى مصداقيته؛ ففي الواقع العملي الصلب تمّ اختبار الأفكار التي أنتجها قرن كامل فلم تستطع أن تحقّق ما وعدت به، وارتدت كل خيبات الأمل تساؤلات عميقة عن جذورها، وأهم تلك الأفكار ما تعلق بالسياسة وعلاقة الدين بالدولة، ومن المؤكد أن قضايا السطح التي تعانيها الحالة العامة في المجتمع الإسلامي، مثل: فكرة الدولة المسلمة، وفكرة الخلافة، وفكرة الجزية، وفكرة الحرب المفتوحة على العالم، وغيرها عشرات من الأفكار وهي مجرد مقولات السطح، ومن تحتها تختفي قصة التراث أو المنتج البشري الشارح للدين الذي أصبح مع الوقت هو الدين في حياة الناس، ومن هنا لزم فتح هذا الجزء من التراث للنظر فيه بعمق، فالتاريخ بكل تجلّياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومناهج البحث المختلفة التي شكلت فضاءنا المعرفي كلها تحتاج إلى زيارة عميقة. والسؤال المخيف باستمرار هو ماذا لو اكتشفنا القصور في التراث والمنتج البشري، وقد بنى الناس عليه تصوراتهم ومقارباتهم ثم اكتشفوا أن كل ذلك البناء لا يقف على أرض صلبة؟ فما هي الأرض الجديدة التي سيقفون عليها؟ ويخلص الناس إلى نتيجتين كلتاهما ضارة بالحياة:

النتيجة **الأولى** لا تقترب من هذه الدائرة فبقاء الناس على خطأ ألفوه خير من صواب لم يألفوه!

النتيجة الثانية أهدم ما بني على باطل ولا يهم بعدها أين يسير الناس!

وكلا الحلّين غير مجدٍ؛ فالنتيجة الأولى هي حلٌ لا يمكن أن يستمر، فالناس تواجه أسئلة عميقة متعلقة بالحياة وبعضها مصيري يمس السياسة والاقتصاد والحرب والسلم وقضايا التقدم والعلم، والخطأ فيها ليس من جنس رفع الإصبع في الصلاة عند التشهد؛ إذ لا ضرر في ذلك بأي وجه كان، ولكن عندما ترتفع القضايا إلى قضايا وجود كما هو في السياسة والسلم والحرب لا يصبح هناك مجال للتجاوز... فقضايا التقدم والتخلّف والحرب والسلم هي ما يواجه المسلمين اليوم... فسؤالٌ مثل الوحدة الوطنية... ومثل سقف الحريات... ومثل العلاقة بالمجتمع الدولي... ومثل العلاقة بحرية المعتقدات لكل البشر كلها أصبحت أسئلة حاضرة في المشهد، ونحن مضطربون في الإجابة عنها كما بين المشرق والمغرب من مسافة... من بين مسلّم بها بالجملة ومن بين رافض لها بالجملة وما بين ذلك من مساحات، والكل يستند إلى نص أو إلى قاعدة شرعية ليسند ما يقول، والحياة تسير لا تنتظر كل هذا الجدل، وأمم الأرض تتقدم ونحن عالقون في الفضاء ذاته منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم.

النتيجة الثانية وهي هدم كل البناء، أمر صعب على النفس، فترك الناس في حيرة من أمرهم ليس بالأمر المقبول على الأقل نفسياً... فأي مجتمع يحتاج إلى ما يتكئ عليه من تصوّرات ورؤى، وإهمال ذلك ضرب من المحال ويبقى السؤال كيف نسلك بين ذلك سبيلاً وسطاً؟

إننا نقول، هنا، إن الدين بمعناه المنقول تواتراً من خلال الممارسة العملية ليس عرضة للسؤال؛ فهو مقطوع به وهو ما يشكل الإسلام في كل العصور، فالمسلمون اختلفوا في ما لا يحصى من القضايا ولكنهم بقوا مقرين بجملة الاعتقاد العامة، وبقوا متمسكين ومطبقين لقضايا العبادات الكبرى في الجملة، وبقيت المحرمات الكبرى محرمات، أما ما أنتجه البشر كأثر للنص من علوم وأدوات أو من فقه وفهم، فهو ما يحتاج إلى مراجعات... بعضها كبير ولكنه ضروري... حتى نستطيع أن نواصل التقدم... فليس المطلوب إسقاط كل تلك المنجزات، ولكن يجب البناء على الصالح منها، وأن تكون لدينا الجرأة والقدرة على استمرار البناء حتى نخرج من هذا المأزق التاريخي.

والتراث الذي بين أيدينا تراث غني تشكّل عبر ألف وأربعمئة سنة، ويحمل بصمات كل تلك القرون وإشكالياتها ووعيها بزمنها وعبقرية وقصور أصحابها في الوقت ذاته... واليوم ونحن نريد مقاربة عصر جديد لا بد من زيارة التراث بعيون فاحصة لمعرفة كيف أثّر جزء منه سلباً في حركة الأمة في الماضي، وكيف يؤثر اليوم فينا، وهذا الجزء المعيق يلامس التصور التاريخي كما يلامس العقائد وأصول الفقه وعلوم الحديث وعلوم التزكية وعلم التفسير، وهي منطقة مشحونة بالعواطف، والدخول إليها كان قراراً صعباً ولكن لم يكن بالإمكان تجنبه؛ لأن كل ما على السطح هو ابن ذلك العمق الدفين سواء بفهم أو بسوء تأويل.

وليس مطلوباً من القارئ أن يسلّم بما نقول هنا، ولكن

مطلوب منه أن يتفكّر، فربما قارب القول الصواب... فما قارب الصواب احتاج إلى نظر وعمل، وما لم يقاربه فهو مردود على صاحبه كجهد بشري.

إن الكشف عن طبقات التاريخ للغوص في جذور حالة عدم الفعالية، وكيف تراكمت عبر القرون لتشكّل واقعنا المعاصر، هو الطريق الوحيد لفك أسر الدين وأسر مجتمعاتنا من الركود؛ فالتقدم ابن الفاعلية، والفاعلية بنت تحرير التصوّرات ومنظومات الفكر.

ملاحظة عن فكرة الدولة

ما نكتبه عن الدولة في التاريخ الإسلامي يجب أن يؤخذ بحذر شديد؛ بسبب عوامل متعلّقة باختلاف مصطلح الدولة في السياق التاريخي عن فكرة الدولة المعاصرة؛ فالدولة بالمعنى المعاصر هي بنت التغيرات التي حدثت في القرون الحديثة، أما الدولة في السياق الإسلامي، فكان يقصد بها التغلب على الملك والحقبة الزمنية التي استمر فيها شخص واحد على رأس السلطة كقولنا دولة عبد الملك بن مروان، أو فئة معينة كقولنا الدولة الأموية، ووجود السلطة، أي فئة تسيّر مجتمع ما، قضية صحبت كل المجتمعات البشرية من أصغر وحداتها أي الأسرة إلى التجمعات القبلية والتجمعات ما فوق القبلية، ولم يعنِ ذلك وجود الدولة ووجود الوظائف المختلفة، مثل: القضاء أو قيادة العسكر أو توزيع الغنائم لم يكن يعني الدولة، فكما قلنا الدولة مصطلح حادث ومعاصر جاء مع ظهور الدولة القومية، بتعريفها في الإقليم والشعب والحكومة، وما سنذكره عن التاريخ

الإسلامي هو ابن عصره... وبيانه ناشئ عن الحاجة إلى معرفة محدودية النموذج التاريخي في الإجابة عن أسئلتنا المعاصرة لا أكثر ولا أقل؛ حيث يعتقد كثير من الشباب أن هناك نموذجاً تاريخياً أجاب عن الأسئلة المعضلة في الدولة، وكل ما علينا هو استرجاعه والشاهد التاريخي ينفي وجود هذا النموذج... والفكر المعاصر لم يعد يهتم كثيراً بشكل الدولة ولكن يهتم بقيامها بوظائفها، والتزامها بقيم الحرية والعدالة وقيامها بوظائفها المنتظرة منها.

الفصل الثاني

إشكالية التاريخ

التاريخ الإسلامي تجاوز الأربعة عشر قرناً من الزمان ونحتاج إلى أن نفحص فيه أسئلته الكبرى التي تركها في جوانب حياتنا المختلفة أو كفاءة الإجابات:

- من أين برز العجز عن بلورة القيم للواقع؟
- ما هي الأسئلة التي طرحت نفسها في موضوع الدولة؟
- ما هي الأسئلة التي طرحت نفسها في تحدي الاجتماع؟
- ما هي الأسئلة التي طرحت نفسها في العلاقة بالعلم؟
- أوهام المعاصرين!
- كيف نتحرك إلى الأمام؟

قيم الإسلام عظيمة: فلماذا لم تتبلور في واقعنا؟

لماذا لا يفعل الدين ما ننتظره منه في واقعنا؟

نسمع كثيراً أن سبب تخلفنا هو عدم تطبيق الدين، والدين في جوهره كمالات؛ فالعدل والحرية والكرامة والنظام والنظافة والعلم والعبادة والتقوى كلها مستقلات عقلية تطالب بها كل

الأمم وتتمناها ولكن اقتراب الأمم منها، أو من بعضها هو الذي يختلف، والأمم التي تقدّمت حظيت بتطبيق أكبر من هذه المفردات، والأمم التي خسرت السباق حظيت بتطبيق أقل فكيف نجحت؟

لم يكن الأمر متعلقاً بوجود المستقلات العقلية، مثل: ضرورة العلم وأهميته والنظام والنظافة والعدل والحرية والكرامة الإنسانية والصناعة والزراعة والتجارة، فهي موجودة عند كل الأمم بحكم الطبيعة البشرية... والدين جاء ليؤكدها لا لينشئها ابتداءً وعمّقها بأن جعلها مطلباً ضرورياً للعبور إلى اليوم الآخر... ولكن الأمر في طريقة تفكير تلك الأمم وطريقة تعاطيها مع هذه المستقلات فمن نجح، نجح لأنه تمتع بالعلم، والحكمة ليس بإطلاقيتها، ولكن بالنسبة إلى غيره ممن فشل وكان أقل حظاً في العلم والحكمة. فالقيم لا تتحرك في الواقع لمجرد تسميتها بل هي قرار على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمعات والأمم، فهل اتخذنا هذا القرار؟

من المؤكد أننا نريد تطبيقها أو رؤيتها في الواقع، ولكن ما الذي أوقف نمونا في هذا الجانب عبر قرون متطاولة... هذا يحتاج إلى عملية سبر كبيرة للعوامل العميقة التي سطحت العقل المسلم في الماضي والحاضر، وجعلته يدور في حلقة مفرغة من الوعظ الذي يعجز عن تغيير الواقع الفردي أو الجمعي بشكل يغير حياة المجتمع.

فالقيم تمر بخمس مراحل كبرى لتعبر إلى الواقع:

مرحلة الوعي الأوّلي

حيث يتم الحديث عن القيمة في سياقات النصوص الدينية أو الوعظ أو السياقات الأدبية، من شعر وقصة من دون بحث معرفي معمّق، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالمرحلة الجنينية.

مرحلة التحرير الفلسفي

حيث يكتشف الفرد أو المجتمع سقفاً أعلى في النظر إلى القيمة (سؤال ماذا ولماذا؟)؛ فيدور النقاش حول تعريفها وتحديدها في سياقات المجتمع ودراسة تراتبيتها وعلاقتها ببقية المنظومة القيمية، ونشرها اجتماعياً ويمكن أن نسمي هذه المرحلة «مرحلة التنضيج المعرفي والانتشار».

مرحلة التبني الواعي

فهنا يحوّل الفرد أو المجتمع القيمة إلى مبدأ مستقر، مثل: «النظام هو أساس المجتمع»، «الشورى هي نمط حياتنا»... إلخ. ويمكن أن نسمي هذه المرحلة «بلورة القيمة إلى مبدأ».

مرحلة التحويل إلى إجراءات

وهي مرحلة الربط بين الفكرة والواقع عبر وضع الخطوات التي تكفل وجود القيمة في المجتمع كنظام حياة سهل المعايير وقابل للتأكد من تبلور القيمة إلى واقع، ويمكن أن نُطلق على هذه المرحلة تسمية: «الأجرأة».

مرحلة ضمانات البقاء

وهي مرحلة التدقيق في الآليات التي يمكن التحايل فيها على القيمة وتجريدها من مضمونها أو حتى إلغائها، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة «ضمانات بقاء النظام».

وحين ننظر إلى معظم القيم التي ننادي بها في مجتمعاتنا سنجد أن أغلبها لم يغادر المرحلة الجنينية، وبقيت قيماً تمدح أكثر منها حقائق اجتماعية مشهودة والسؤال لماذا؟

- هل ذلك بسبب الطبيعة التي تنزلت فيها النصوص باعتبارها بيئة أمية؟
- هل بسبب وقف مسار الفلسفة والبحث النظري والاكتفاء بسوق النصوص كبديل عن التأمل النظري؟

أو ربما لكلا السببين... ويبقى الأمر للبحث المعمّق الذي لا مكان له هنا.

أكبر العوائق هو العقلية الدفاعية في وجه التفكر في المعضلة

إن البحث في جذور الأزمة على حقيقتها كان دائماً محفوفاً بالمخاطر من وجهين: الوجه **الأول** هو الخوف من حالة الانكشاف التاريخي وما يصحبها من إحباطات ويأس، والوجه الثاني الخوف على مكانة الأشخاص في التاريخ ونظرة الناس إليهم... ففي فترات الهزيمة يلجأ الناس إلى التاريخ ليستندوا إليه، حين تعوزهم إنجازات الحاضر، فلو تضعضعت ثقة الناس في التاريخ انكسرت العصا التي يتكئ عليها المجتمع وهو تحليل صحيح في المجمل... ولكن...

لكن الواقع المعاش وقضاياه لا تنفك عن أزمات الفكر في التاريخ وأقضيته؛ فظواهر، مثل: الاستبداد ونظام التفكير غير العقلاني، والعلاقة السيئة بالعلم والكشف والسؤال، والشعور بالعجز، والفكر المضطرب العلاقة بالدنيا، والفكر المضطرب العلاقة بالآخرة، وغياب آلية التداول السلس للسلطة، والصراعات المذهبية والطائفية والعرقية... وكلها آفات نشتكي منها اليوم لا يمكن فهمها من دون الغوص عميقاً في كيفية إنشاء الوعي الجمعي في الأمة، والظروف التي قادت إلى تكوينه ونوعية الاستجابات الخاطئة التي أنتجناها في الملفات المصيرية.

لقد توقف كثيرون عن طرح الأسئلة أو أجهضوها بموقف دفاعي مسبق نتج من الخوف من تبعات النتيجة في حال الإقرار بها، وهو موقف نفسي طبيعي ربما كان له مبرره في لحظات الخوف الكبرى في أثناء فترة الاستعلاء الأوروبي في قرن الاستعمار... ففي تلك الأوضاع واجه الناس عدم تكافؤ القوة وحالة الاستلاب النفسي والانسحاق تحت نموذج المستعمر بحالة من تمجيد الذات وإسقاط اللوم على المستعمر باعتباره أساس التخلف، وبلوم الشعوب لأنها لا تطبق الإسلام كما طبقه من سبق أيام المجد... ومن هذه الزاوية كان لا بد من تمجيد التاريخ الإسلامي وإظهار محاسنه وإخفاء عيوبه وخلق دفاعات صلبة أمام حالات مسألة التاريخ، مما أعاق اكتشاف أوجه الخلل في الذات الحضارية واكتشاف نوعية الإجابات التي خلقها جهدنا البشري كأمة... وتلك مهمة ما زالت خطرة ولكن من دونها لا يمكن بناء أرضية صالحة للإقلاع!

حركة التاريخ والأسئلة المعلقة

من هنا لزم أن نغوص عميقاً في جذور الأزمة التي قادت مجتمعاتنا إلى الوضعية الحضارية الحالية، وهو أمر يبدأ من التاريخ السياسي الضاغط على الوعي إلى تاريخ نشأة العلوم ومناطق الانسداد فيها؛ فهناك تكمن أعماق الأزمة الفكرية التي قادت إلى تأزم عالم العلاقات الداخلي والخارجي وقادت في النتيجة إلى انهيار عالم المشاريع والبناء الخارجي الذي نجني ثماره اليوم. وقراءة التاريخ بشكل سردي للقارئ العَجول مملة ولا تترابط حلقاتها؛ ولذلك سنقدّم أولاً جدولاً تبسيطياً للمسار التاريخي يعطي الخطوط العريضة قبل شرحها:

جدول المسار التاريخي	
الموضوع	**الملاحظة**
أهمية التاريخ والخوف من الإحباط	اقرأ **شمس الله تشرق على الغرب** (هونكه) أو من **روائع حضارتنا** (السباعي) إن شئت معرفة الجانب المشرق فقط، فهو السؤال التقليدي الذي يطرح (أليس لنا محاسن؟) وستجد الكثير إن شاء الله. أما هنا ستجد صورة من التاريخ مغيبة تحتاج إلى معرفتها لتكتمل الصورة.
بيئة الركود في الجزيرة	تتشابه بيئات الركود من حيث وفرة الأفكار القاتلة.
الأفكار الحية في الإسلام	وفر الإسلام كل أسس الحياة الصالحة والإقلاع الحضاري للمجتمع الجديد وتركه ليتفاعل معها. معظم هذه القيم لم تترجم إلى ثقافة عامة ولا إلى تطبيقات تتجاوز المخيال الاجتماعي العربي حينها.

خطبة حجة الوداع	مفصل مهم للتفكر في صناعة مستقبل الأمة فللنجاح يجب القيام بالتالي: بدء صفحة جديدة في الاقتصاد... وبدء صفحة جديدة في السياسة... وإيجاد آلية سلمية لحل النزاعات السياسية... واجب العناية بالمرأة... واجب المساواة بين البشر في المجتمع الواحد. ولم تترجم هذه القضايا إلى تصورات تحكم الواقع.
بعد رحيل الرسول عليه الصلاة والسلام تواجه الأمة سؤال السياسة	لم يتحوّل الحكم إلى مؤسسة مستقرة بل بقي بسيطاً كما عهده العرب، لم توجد آلية تداول سلمية مستقرة توافقياً فبقي النظام مهدداً مع كل وفاة لرأس السلطة. لم توجد آلية لحل النزاع لو اعترض قطاع من الأمة على الحاكم فنشأت مأساة سيدنا عثمان (رضي الله عنه). لم توجد آلية لحلّ النزاع لو رفع السلاح بين أبناء الأمة فنشأت صِفّين. لم توجد آلية تجيب عن سؤال ماذا لو تم تغيير النظام بالكامل كما حدث مع الأمويين. لم ينشأ سؤال معرفي حول كل تلك القضايا بل عولجت بمسكنات وعظية.
إنجازات العصر الأموي والعباسي	من المهم معرفة أهم إنجازات العصر الأموي ومتى تمت وكم الزمن من المدة الكلية (٤٠ ـ ١٣٢ هجرية)؟ من المهم معرفة فترة الازدهار في الخلافة العباسية المباشرة، وأهم إنجازاتها متى وكم استمرت من عمر الدولة العباسية؟

الوجه السياسي للعصرين الأموي والعباسي لا بد من معرفة طبيعتهما من خلال الشهود	شاهد المعتزلة التصورات الأربعة للحكم شاهد الإمام أبي حنيفة شاهد الإمام مالك شاهد الإمام الشافعي شاهد الإمام أحمد وإقفال التصور السياسي
لم تنجح التسوية التاريخية الفقهية في وقف التدهور	استمر التدهور، فعلى الرغم من أن العباسيين استمروا من عام ٧٢١م إلى ١٥١٩م، ولكن الفترة الذهبية كانت بين عام ٧٨٥م مع تولي الرشيد وانتهاء بولاية الواثق عام ٨٤٧م، وهي مدة ٦٢ عاماً وبعدها بدأ الانهيار، فمن العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد ١٢٥٨م ساد الأتراك المشهد ثم انتقلت الخلافة بعدها إلى القاهرة في صورتها الاسمية، تحت حكم فعلي من المماليك حتى أنهاها العثمانيون ١٥١٩ ميلادية. والحكم الأندلسي استمر ٨٠٠ عام (٩١هـ/ ٧١١م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) ولكن فترة الازدهار الحقيقية، هي مرحلة عبد الرحمن الداخل (٧٣١ ـ ٧٨٨م) باني قرطبة ثم عبد الرحمن الناصر (٩٢٩ ـ ٩٦١م) باني الزهراء.
الخلاصة	لقد كانت استجابة البشر للأفكار الحية التي نزلت من خلال الوحي مشوبة بأفهام تلك العصور وما زالت الآفات السياسية باقية إلى عصرنا: غياب آلية تداول وتراضٍ ـ غياب آلية فض النزاع السلمي ـ غياب آلية فض النزاع العسكري ـ غياب آلية التقويم لانحراف النخبة.

المسار التاريخي

الدين كلمة عامة ولا توجد أمة ليس لها دين بمعنى من المعاني؛ فالعقائد دين والطقوس دين، وتصوّر الحياة ورؤية الاجتماع وأوجه الحياة المختلفة غالباً ما تخضع لمنظور ديني... سواء كان مصدره السماء أم الأرض... ولكن البشر لا يعيشون بغيره... والإلحاد في ذاته دين لأنه يضع تفسيراً للحياة ويضع آليات لعيشها، وإن لم يكن ديناً منزلاً... ونحن هنا، سنتكلم عن الدين بمعنى الرسالات السماوية وما يخصنا منه في بيئتنا وهو الإسلام، باعتباره المكون الرئيس في بيئاتنا العربية والإسلامية.

كل دين يتعرّض مع الزمن لآثار البعد عن المنابع ومن هنا جاء الأثر: «يبعث الله إلى الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدّد لها دينها». وبغض النظر عن فكرة التجديد وتأويلها... نحن نقف أمام حقيقة موضوعية وهي أن التديّن «يُدخل في الدين ما ليس فيه» ومع طول الزمن يصبح كل ذلك جزءاً لا ينفصل عن الدين إلا بعملية جراحية كبرى... فكل شيء يطول عليه الأمد يصعب الانفكاك منه ويكتسب مشروعيته، مع طول الزمن، من القدم لا من قوة الحجة... هكذا حدث مع الديانات السابقة وما حكاية القرآن لأخبارهم إلا على سبيل العبرة والموعظة... فالإنسان هو الإنسان... وهو مفطور على النسيان... نسيان التعاليم أو الالتفاف عليها أو سوء تأويلها.

ولكن ماذا نقصد بأن الدين فقد فاعليته في الواقع؟ نقصد بذلك أنه مع وجوده إلا أنه فقد روحه التي تدفع الإنسان الحامل للفكرة إلى العمل والعطاء في صناعة الحياة... شيء ما حدث

بالقطع في العلاقة بالنص فجعل الأفهام تنصرف عن روحه الفاعلة وقوته المنتجة... هذا ما سنحاول أن نسبر غوره في الورقات الآتية في حديثنا عن أثر الزمن في الدين والتدين، كما حدث في بقية الديانات وكما يعلمنا القرآن: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، فالمطلوب دراسة التاريخ لاكتشاف أوجه القصور التي تقود الأمم إلى مصائرها.

جرعة من الألم أم جرعة من الأمل

ونظراً إلى خطورة المبحث وصعوبته، لا بد من بيان ابتدائي عندما يحاول المرء معالجة أوجه القصور التي أدت إلى سقوط الحضارة الإسلامية تاريخياً، فهو بالضرورة يعرض لعناصر القصور السياسي وآثارها، وذلك لأن ما يسقط الحضارات هو جوانب القصور وليس جوانب القوة، وحالنا هنا أشبه بمريض يسأل الطبيب عن قائمة الأمراض التي يلزم علاجها، فيوصف له ما يجب علاجه في جهازه العصبي، وفي جهازه التنفسي، وفي جهازه الدوري، وفي جهازه العضلي... وفي طريقة تصرفه وطريقة عيشه... وكل ذلك ليعرف ويتصرف وفقاً لهذه المعرفة... وبدلاً من شكر الطبيب يصرخ المريض في وجهه ولكن أين إنجازاتي؟

الناس تخاف من رؤية المشهد من غير زاوية الإنجازات، ولها العذر في ذلك فبناؤها العقلي قام على إهمال جوانب القصور والتحدث عن الإشراقات فلم تعد تستطيع أن توازن الصورة... في الفقرات الآتية، سنحاول أن ندخل إلى الجزء

الذي يتم التعتيم عليه من صورة المشهد التاريخي وهي بالضرورة الجزء الصعب من الحديث لأننا حين ندخل إلى هذه المنطقة يصرخ قائل أين إنجازاتنا، هل كل ما كان عندنا خطأ... أين دار الحكمة وأين الأندلس وأين علماؤنا وأين حواضرنا وأين فتوحاتنا... وبما أن هذا الكتاب ينحو منحى تشخيص الأمراض، وهي قائمة صعبة فأنا أنصح القارئ الذي سيخطر بباله هذا السؤال أن يقرأ كتابين رائعين هما: **كتاب شمس الله تشرق على الغرب** لزيغريد هونكه، وكتاب **من روائع حضارتنا** للأستاذ مصطفى السباعي، وسيفيان بالغرض وسيوازنان الصورة إن شاء الله... أما هذا الكتاب فنظراً إلى ما يهدف إليه، ببيان جوانب القصور فسيقف عند النصح بالكتابين السابقين، وننطلق إلى ما كتب هذا الكتاب للوفاء به، ومن لا يستطيع أن يتحمل لسبب أو لآخر، فهو في حلٍّ من مغادرة الكتاب.

ولنبدأ من البذور الحية والمرحلة الجنينية

نقول إن النهضة هي أفكار حية تتنزل على بيئة ركود تثيرها فتفعلها فتدخلها في دورة حضارية... والجزيرة العربية قبل الإسلام كانت بيئة ركود تسودها منظومات أفكار ميتة لو أردنا تبسيطها:

المجال	أفكار بيئة الركود
الاعتقاد	الآلهة المتعددة ـ الكهنة والمشعوذون ـ التطير ـ ضرب الأقداح.
العبادات	نظام متذرر يدور حول فكرة الصنم والحج والطواف عرايا والتصفيق والصفير.

السلوك	الكبرياء والتفاخر والطعن في الأنساب والمبالغة في الكرم وحب المدح.
السياسة	نظام متذرر قبلي صحراوي في الغالب وشبه إمارة (مكة) وتبعية حدودية للروم والفرس.
الاقتصاد	خلا مكة وحواف الجزيرة لا توجد نظم مستقرة، فالطابع هو نظام الغارات والكسب عبر النهب المتبادل فالمال ليس ابن العمل إنما تبع لقوة السيف.
الاجتماع	نظام طبقي تمييزي فيه السادة وفيه العبيد يقوم قلبه على التمييز الحاد بين طبقات المجتمع والظلم الاجتماعي، بحسب تراتبية القوة والإخضاع، وصورة متذررة للمرأة فهي قد تكون ملكة في اليمن أو تكون موءودة في مكان آخر، وقد تكون سيدة أعمال أو سبية وفق الظرف والمكانة الاجتماعية.
التعليم	بيئة أمية علاقتها بالعلم والتعلم ضعيفة جداً.
الصحة	نظام بدائي مبني على الخبرات التي توفرها الصحراء وأعشابها.
الدفاع	لم تعرف الحدود حينها بمعناها المعاصر وحدود الدفاع هي حدود القبيلة والمضارب، وبالتالي فلا يوجد نظام دفاعي مشترك ناهيك بأن الغزو هو سبيل العيش.
الأخلاق	لم يكن هناك مجتمع واحد ولكن هناك ما يتفاخر به بنظام الأنفة كالقوة والجود والنجدة والمروءة وكلها تصل إلى الإفراط والتفريط.
الحقوق	الحق للقوة.
النظام	أعراف البادية وتقاليدها.

فجاء الإسلام بمنظومته التي خالفت السائد الاجتماعي وما استقر عليه:

	المفهوم	المبدأ
١	﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]	للكون خالق معتنٍ.
٢	﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]	العناية تشمل كل المخلوقات.
٣	﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]	الرحمة شعار الإسلام.
٤	﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]	استحضار اليوم الآخر في كل عمل.
٥	﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]	إله واحد
٦	نظام عبادي	الصلاة، الزكاة، الحج، الجهاد... إلخ.
٧	نظام أسري	زواج، طلاق، إرث علاقات عائلية.
٨	﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]	نحن نؤمن بالمسؤولية الفردية
٩	﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾	الآخرة مرتبطة بالإحسان في الدنيا.
١٠	﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]	نحن نرى تكامل الحياة وشمولها.
١١	﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]	نحن نرى الجوانب التي قصّر فيها الآخر المماثل.

١٢	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]	نحن نؤمن بتعايش المعتقدات على اختلافها.
١٣	﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]	نحن نؤمن بحرية الاختيار الاعتقادي.
١٤	﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]	الفكر يواجه بالفكر.
١٥	﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]	المعرفة أم التقدم.
١٦	﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧]	الكون مصدر المعرفة الأعظم.
١٧	﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]	السؤال هو أبو المعرفة.
١٨	﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]	كل شيء يجب أن يعرض على محكمة الدليل والبرهان.
١٩	الصف	النظام هو سر النجاح.
٢٠	﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]	نؤمن بمجتمع النظافة المادية والمعنوية.
٢١	﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦]	نؤمن بالجمال والزينة.
٢٢	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]	نؤمن بأقصى درجات العدل.
٢٣	﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]	نؤمن بالإتقان الأقصى.
٢٤	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]	نؤمن بالتعارف البشري الكوني.

٢٥	﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]	نؤمن بمشروعية الاختلاف.
٢٦	«كلكم لآدم»	نؤمن بوحدة الأصل البشري.
٢٧	﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]	نؤمن بالكرامة الإنسانية الأصيلة.
٢٨	﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]	نؤمن بالسلام العالمي وبحرمة الاعتداء.
٢٩	﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]	نؤمن بحقوق الآخر والعلاقات الإنسانية.
٣٠	﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]	نؤمن بنظام الحقوق مع المختلف اعتقاداً.
٣١	﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]	نؤمن بحرية النشر والتعبير.
٣٢	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]	نؤمن بأهمية التعاقد.
٣٣	﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]	نؤمن بالوفاء بالعهود والمواثيق.
٣٤	﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]	نؤمن بالقانون الذي يساوي ويعدل.

حين ننظر إلى القائمة السابقة نجد أنها تشكل حالة انتقال عملاقة في عالم الأفكار، تطرح نفسها على إنسان الجزيرة، وتفوق إمكانياته العقلية والتاريخية في محتواها ومخزونها الإنساني؛ فهي مُعَدة لاستيعاب الإنسان عبر كل مراحل تطوره ونموه المعرفي والثقافي، وبالتالي؛ فإن إنسان الجزيرة اغترف منها بحسب وعائه الحضاري لحظتها، وتمثّل بعضها في سلوكه اللاحق، وبقيت هي من حيث طاقتها الإلهامية عابرة للزمان والمكان.

قيم جنينية

ولكن لنا ملحظ بعد كل هذا، أننا بالتأمل في هذه العناوين الكبيرة نستطيع أن نرى أن معظمها بقيت قيماً جنينية لم نبحثها حضارياً في عمقها الفلسفي، وغالباً ما تمّ التعامل مع تجلياتها الخارجية في شكل مفردات الحلال والحرام، وهي مفردات قانونية فقهية أكثر من كونها سؤالاً عميقاً إثرائياً لفضاء النصوص، ولم نحوّلها حتى الآن إلى أول محطة كبرى ضرورية (وهي بحثها فلسفياً)، بحيث تستطيع أن تصبح وعياً عاماً مستقراً عند النخب، أولاً، ثمّ بين العموم، وبالتالي نستطيع أن نصنفها قيمياً في مرتبة الضرورة أو الحاجة أو التحسين، وبالتالي لم تكن جاهزة لتتحول إلى محطة البدء أو إلى محطة الإجراء أو إلى محطة الحماية وتلك واحدة من أكبر التحديات التي ما زالت تواجهنا حتى اليوم.

عدم التمييز بين المادة الخام والمادة المعالجة

المشاكل التي تشغب على حوارات اليوم في الداخل المسلم كثيرة. . . فحين يتم التساؤل عن التخلف يسارع المدافع إلى ذكر المادة الخام، أي النص، مهمِلاً أن النص في حدّ ذاته أشبه بالمادة الخام الموجودة في البيئة، لا يدل وجودها، في شكلها الخام، على غنى المجتمع بل يدل على غنى البيئة التي يقف عليها المجتمع والفارق كبير وأما تحولها إلى ثروة فهو ابن إدراك المجتمع لها ووعيه بأنها ثروة، والحفر عنها عميقاً للوصول إلى مخزونها ثم نقلها إلى أول وجود محدد في شكلها الخام، ومن ثَمّ معالجتها في شكل نظام متكامل وبعدها يمكن الكلام عن ثروة المجتمع.

هكذا شكلت هذه النصوص وشكل هذا المخزون تصوراً جديداً للحياة مقابل التصورات المستقرة في الجزيرة العربية، وحدث الصراع بين معسكرَي الأفكار (القديمة الآفلة والجديدة الواعدة)؛ فانتصر معسكر الأفكار الواعدة في مجال الاعتقاد والشعائر وبقي يصارع في بقية الفضاءات حتى يومنا.

خطبة الوداع وسياسات القادم

خطبة الوداع هي آخر خطبة ألقاها رسول الله (ﷺ) وهذه هي الخطبة التي ألقاها على جبل عرفات في التاسع من ذي الحجة سنة ١٠هـ. ويمكن اعتبار حجة الوداع أكبر تجمع إسلامي في العهد النبوي، فقد تجمع في عرفات في ذلك الوقت نحو ١٢٥ ألفاً من أصحاب رسول الله (ﷺ)، وقد ألقى رسول الله هذه الخطبة قبل وفاته بنحو شهرين، وأعلن فيها بصورة أخيرة ونهائية كل تلك الأشياء التي بعث من أجلها.

وتذكر كتب الأحاديث حجة الوداع بصورة أو بأخرى، ولكن لا يوجد المتن الكامل لخطبة حجة الوداع في أي من هذه الروايات. بل نجد أجزاءً متفرقة في عدد من الروايات، وقد حاول بعض أهل العلم أن يجمعوا هذه الأجزاء المتفرقة في مجموعة واحدة.

النصوص

وفي ما يأتي نص هذه الخطبة التي خطبها رسول الله (ﷺ) يوم عرفة:

«أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعه من دمائنا: دم ابن ربيعة ابن الحارث [كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل]. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا: ربا العباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن ـ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح. ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله وسنة نبيه. وأنتم تسألون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» [ثلاث مرات]».

أما الخطبة التي ألقاها رسول الله (ﷺ) في أوسط أيام التشريق فنصها كما يأتي:

«يا أيها الناس! أتدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم» [فقالوا: في يوم حرام، وبلد حرام، وشهر حرام]، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، وفي بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه. اسمعوا مني تعيشوا: ألا لا تظلموا! ألا لا تظلموا! ألا لا تظلموا! إنه لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه، إلى يوم القيامة وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، وإن الله (ﷻ) قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس ابن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض [ثم قرأ]، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون، ولكنه رضي بالتحريش بينكم، واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً...».

خلاصة القول: إن المجتمع الجديد سينجح إنْ حلّ التحديات الكبرى التي تواجهه كمجتمع وأوجد الآليات لعلاج هذه القضايا الست:

- حرمة الدماء والأموال.

- ضرورة البداية الجديدة في الملفات العالقة (الدماء والاقتصاد).
- وقف الظلم.
- العناية بملف المرأة.
- المساواة بين البشر.
- إيجاد آلية سلمية لحل النزاعات.

والملاحظة الكبرى هنا أن كل هذه القضايا هي من المستقلات العقلية، والخطاب النبوي يذكّر بها ويربطها مجتمعة بالعقد الرباني مع بني البشر، وهي تقع في صلب مهمة الاستخلاف والإعمار القائمة على وقف الفساد في الأرض، ووقف سفك الدماء من جانب والإعمار والتنمية من جانب آخر. أما تحويلها إلى منظومة حياة فذلك عمل البشر ومهمة ستتسابق فيها الإنسانية...

جهد بشري؟

حين نتجاوز هذه النقطة ونسأل أنفسنا لماذا تحولت هذه المستقلات العقلية إلى واقع ملموس في بعض المجتمعات وبقيت في بعض المجتمعات أحلاماً وآمالاً أو حتى بكائيات..؟ وسنجد باستمرار أن النتائج هي ثمرة كم الجهد الذي بذل في مسارين: **الأول** وهو المسار المعرفي المتعمق في هذه القضايا، **والثاني** وهو مسار الاعتبار المستمر من الخبرة التاريخية المباشرة للأمة صاحبة الشأن؛ فالنموذج الأوروبي مثلاً توسّع في البحث السياسي، منذ الحضارة اليونانية، على أيدي فلاسفته الكبار

سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم، وربط ذلك بخبراته العملية عبر أجيال من الفشل والنجاح وحولها إلى ثقافة شعبية متجذره.

فتأهُّل المجتمع واستعداداتُه ووعيُه شروط أساسية للانتقال بالقيم من حيز المجردات العقلية إلى الواقع وتلك مهمة تنافسية بين الأمم حتى اليوم.

شروط الانتقال بالقيمة إلى الواقع

فلا يكفي أن توجد عناوين من دون عمق معرفي ولا يكفي أن يكون هناك عمق معرفي من دون انتشار ثقافي جماهيري، يجعلها جزءاً من تفكير الإنسان العادي وأشواقه ولا يكفي أن تتحول إلى ثقافة منتشرة من دون أن يتم تبنيها كمبدأ يسيّر دولاب الحياة، ولا يعمل المبدأ إلا بإيجاد آليات ومؤسسات وإجراءات ولا يستمر العمل بها إلا بنظام حماية من الاختراق والتلاعب. وهذا ما نجح فيه الغرب بامتياز فتفوق وأصبحت له اليد العليا بعد وهدته في القرون الوسطى.

الإيمان محرك والعقل دليل

لقد أحال الخيال الديني الضيق الموضوع على القضية الإيمانية الروحانية، وأحالته الأمم الأخرى على بند العقل والتفكر والتجريب فنجحت وأخفقنا.. فالإيمان قضية تزيد حساسية النفس الواعية بمتطلبات العمل قوة في الحماس ولكنه غير مجدٍ كحل في غياب الوعي بمتطلبات العمل وتلك مفارقة لا يدركها القوم حتى بعد أن تكشفت حقائقها في عصرنا

الحاضر... فالخطاب الديني ما زال يبشر بالحل الإيماني عازلاً له عن سياق العمل المتعقل... بينما الحل يكمن في العمل على بصيرة وليس مجرد العمل العاطفي، وهذه البصيرة تشمل الوعي بالدين والوعي بالدنيا التي يعمل فيها الدين وهي التقاء العقل الذكي بالقلب النقي بالواقع الحي في تفاعل مثمر.

أسئلة السياسة

ما هو النظام السياسي على مستوى التحقق العملي؟

النظام السياسي في المحصلة هو آلية لإدارة المجتمع وضمان مصالحه، مدخلاته واحتياجات المواطنين أو من يمثلهم النظام، وعملياته هي القضاء والتشريع والتنفيذ، ومخرجاته هي القرارات التي تخص المواطنين وهو يستقر بقدر رضى هذه الجماهير عنه، وكلما قلّ رضى الجماهير أصبح النظام مهدداً... وهو بعدها أمام خيارين: إما الوصول إلى تسوية لرضى الجماهير أو أصحاب الشأن أو استخدام آلة القمع... ومع كثرة استخدام آلة القمع تفقد قيمتها وقدرتها على الفعل، وتنفجر الاضطرابات على نطاق واسع.

فالنظام السياسي الراشد هو ما يحفظ الاستقرار والعقلانية في المجتمع ويجعل المجتمع يُصَرف خلافاته بطريقة راشدة لا تُفسد الحياة ولا تزهق الأرواح.

وباستمرار تقاس جودة النظام السياسي بقدرته على تحقيق التوازن الاجتماعي بين مختلف الفرقاء، وبالقيام بوظائفه في حفظ ضرورات الدولة، وهي: ضرورة حفظ الوجود ومقتضاها

الوعي بالأمن القومي وبالمصالح القومية للمجتمع الذي تمثّله عبر تأمين الحدود والمصالح العليا الاقتصادية والاجتماعية، وحفظ الاستقرار بالتعاقد الاجتماعي السليم وتوفير الخدمات الضرورية للمجتمع من الغذاء والأمن والكهرباء والماء والتعليم والصحة والطاقة والسكن والمواصلات، وحفظ استمرار النمو عبر التخطيط الشامل وتوفير التمويل للخطط...

والبشرية لم تكتشف النظام الصالح إلا عبر رحلة طويلة من التجربة والخطأ وما زالت ماضية في تلك الرحلة... فليس هناك وصفة جاهزة تلقتها البشرية... ولكنها خبرات يتم الاستفادة منها بحسب رحابة الفكر والقدرة على الاعتبار والتطوير.

والحياة السياسية عند المسلمين وفي بداية نشأة مجتمعاتهم، مرت بعواصف كثيرة وفي مرحلة مبكرة... وكان من الطبيعي أن تولد التحديات الكبرى وأن تكون الاستجابات تجريبية... ولننظر إلى تلك التحديات وهل قمنا بحلها إلى اليوم؟

ما بعد رحيل الرسول وأسئلة الواقع

١ ـ شكل الدولة.

٢ ـ آلية الاختيار.

٣ ـ النزاع على سياسات الحاكم.

٤ ـ وجود جبهتين متحاربتين.

٥ ـ تغير النظام بالكامل.

لا شك في أن الدين الإسلامي قد حثّ على قضايا تشكل مرتكزات عامة لأي نظام سياسي صالح، فهو منظور شامل تكلم عن:

قيم كبرى مثل:

١ ـ الرحمة الشاملة.

٢ ـ العدل الشامل.

٣ ـ الإحسان الشامل.

٤ ـ أمر الناس شورى بينهم.

٥ ـ طاعة أولي الأمر في المعروف.

٦ ـ حل النزاعات عبر فئة ثالثة قادرة على العدل والترجيح.

أما كيف تتحول هذه إلى نظم مستقرة، وتفصيلها في حياة البشر، فهو سباق بشري عام يفوز فيه من يفوز ويخسر فيه من يخسر.

تحدي شكل الدولة

توقف الوحي وبدأت مرحلة المجتمع من دون نبي يوحى إليه... وتُرك البشر لاجتهاداتهم الذاتية في ضوء الخطوط الكبرى التي رسمها الدين فماذا هم فاعلون؟... ولننظر إلى أهم الأحداث المفصلية في التاريخ الإسلامي وهي:

كما يرويها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وتبين التصور السياسي الأوّلي والجنيني عند الأنصار والمهاجرين لشكل المجتمع وترتيبه وآفاقه:

قال الإمام أحمد: ثنا إسحاق بن عيسى الطباع، ثنا مالك بن أنس، حدثني ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عبد الرحمن ابن عوف رجع إلى رحله، قال ابن عباس: وكنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف فوجدني وأنا أنتظره، وذلك بمِنى في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب.

فقال عبد الرحمن بن عوف: «إن رجلاً أتى عمر بن الخطاب».

فقال: «إن فلاناً يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً».

فقال عمر: «إني قائم العشية إن شاء الله في الناس فمحذّرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم».

قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وأنهم الذين يغلبون على مجلسك إذا قمت في الناس فأخشى أن تقول مقالة يطير بها أولئك فلا يعوها ولا يضعوها مواضعها، ولكن حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسُنَّة، وتخلص بعلماء الناس وأشرافهم فتقول ما قلت متمكناً، فيعون مقالتك ويضعوها مواضعها.

قال عمر: «لئن قدمت المدينة صالحاً لأُكَلِمَنّ بها الناس في أول مقام أقومه».

فلما قدمنا المدينة في عقب ذي الحجة وكان يوم الجمعة عجلت الرواح صكة الأعمى قلت لمالك: «وما صكة الأعمى؟».

قال: «إنه لا يبالي أي ساعة خرج لا يعرف الحر والبرد، أو نحو هذا، فوجدت سعيد بن زيد عند ركن المنبر الأيمن قد سبقني، فجلست حذاءه تحكّ ركبتي ركبته فلم أنشب أن طلع عمر، فلما رأيته قلت: ليقولن العشية على هذا المنبر مقالة ما قالها عليه أحد قبله».

قال: «فأنكر سعيد بن زيد ذلك»، وقال: «ما عسيت أن يقول ما لم يقل أحد».

وقد بلغني أن قائلاً منكم يقول: «لو قد مات عمر بايعت فلاناً»، فلا يغترنّ امرؤ أن يقول: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، ألا وأنها كانت كذلك، إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، وأنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله وتخلّف عنها الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لَقَيَنا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟

فقلت: نريد إخواننا من الأنصار.

فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين.

فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت: من هذا؟

قالوا: سعد بن عبادة.

فقلت: ما له؟

قالوا: وجع، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، **وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحصنونا من الأمر.**

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد وهو كان أحكم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهته وأفضل حتى سكت.

فقال: أما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله، **وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش**، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم.

وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، إلا أن تغير نفسي عند الموت.

فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فقلت لمالك: ما يعني: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب؟

قال: كأنه يقول: أنا داهيتها.

قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف.

فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعداً.

فقلت: قتل الله سعداً.

قال عمر: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أرفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا...

فها هنا صورة لما حدث تقول لنا أشياء مهمة عن الفكرة السياسية حينها ويمكن قراءتها كالآتي:

• لم يكن الأنصار يحملون فكرة سياسية سوى رغبتهم في قيادة مدينتهم.

• لقد رأى المهاجرون أن الموضوع هو سيادة العرب.

هكذا يقف النص على أول الحوارات السياسية بين النخبة التي سمعت من الرسول مباشرة من دون واسطة وهي تعرض تصور نطاق الحكم... لحظتها.

وتزداد الصورة غموضاً بعدها كما سيظهر من حركات العلويين والعباسيين في نظرتهم إلى الدولة باعتبارها إرث محمد (ﷺ)... فلم يكن غريباً أن تكثر التصورات وإن استقرت بعدها على ولاية المتغلب والتصور الملكي المعروف عند العرب وغيرهم... والوضع اليوم لم يختلف كثيراً فما زالت الأمة حائرة في شكل الدولة بين ملكيات وجمهوريات وحلم بخلافة!!

تحدي عدم الاستقرار على آلية اختيار

ما هي آلية الاختيار المتوافق عليها؟

اختير الصدّيق (رضي الله عنه) وأصبح رئيساً للدولة لم يتحدد له دخل ولا مهام واضحة المعالم، فبعد أيام من استلام الخلافة لم يتحدث معه أحد، فخرج يريد السوق فرآه الفاروق عمر وعلي كرم الله وجهه، فسألاه عن وجهته فبين لهما أنه يريد أن يسعى في قوت عياله، فقالا له اجلس في دارك نقسم لك وقد كان... هكذا كان الأمر بسيطاً ويسير على وفق ما عهدته البيئة غير المعقدة التي تحيط بهم، فلا نظام خاصاً للرئاسة، ولا الحكم ولا نظام للجند ولا للشرطة ولا سجون... ولا تحديد للصلاحيات ولا نقاش حول مدة الولاية... ولم يتم

الانتباه لفكرة تنظيم التداول حتى بعد المرور بأزمة دار السقيفة، وهو أمر مثير للاهتمام فقد كان المتوقع أن لا يترك الأمر من دون توافق عام على آلية اختيار واضحة المعالم ومتفق عليها... ولكن لم يتم ذلك وأوصى أبو بكر بعمر، فقبله الناس واستمر حكمه عشر سنوات كان في الوسع وضع آلية مستقرة للاختيار ولكن الأمر لم يخطر ببال أحد ربما لبساطة الحياة حينها... وتمدّدت الدولة في عصر ابن الخطاب (ﷺ)، وعلى الرغم من عبقريته وحسن قيادته للدولة بقيت قضية آلية الاختيار غائبة وطُعن فاقترح قبل وفاته آلية جديدة ثالثة... سيصل بها ذو النورين عثمان إلى الحكم... وهكذا سيُقتل عثمان من دون وجود آلية مستقرة.

وغياب الآلية المستقرة لاختيار رئيس الدولة ستكون إحدى المشاكل العالقة في الواقع السياسي العربي حتى يومنا. والآلية المستقرة تعني تحديد دقيق للإجراءات، والتوافق عليها اجتماعياً بحيث تصبح مسطرة شاملة يصعب إغفالها، ومن ضمن ذلك آلية تعديلها إن لزم الأمر؛ بحيث لا تُترك لرؤية كل حاكم على حدته.

تحدّي النزاع حول سياسات الحكم

ماذا لو تنازع الناس حول سياسات الحاكم؟

لقد كان النزاع بين الأطراف والمركز أمراً طبيعياً في كل الدول ولم تكن دولة الخلافة استثناء. فمع تولي عثمان استقرت الدولة في الست سنوات الأولى من حكمه، ولكن ما لبث الحال أن تغيّرت وظهرت الاعتراضات على سياسات الولاة في

الأمصار، ووصل الخلاف إلى عاصمة الخلافة في شكل نزاع مستمر مع سيدنا عثمان (رضي الله عنه)... وانتهى الأمر بحصاره في داره وقتله... ولم يتحوّل السؤال إلى سؤال معرفي حول الفكرة ذاتها، وهي اختلاف الأمصار مع سياسات القلب وكيفية ايجاد آلية لفض هذا النوع من النزاعات في المستقبل بل انقلب الناس في حوار حول الأشخاص... من المخطئ؟ ومن الملام؟ ولم نستفد من درس التاريخ فقررنا إغلاقه بوقف الحديث عن الموضوع... بدل استثماره... وهكذا أُضيفَ إلى واقعنا سؤال آخر عجزنا عن إجابته.

تحدي وجود جبهتين متحاربتين

ماذا لو وجدت جبهتان متحاربتان؟

لم يكن غريباً في تلك البيئة وإلى اليوم نشوء نزاع مسلح بين شرعيتين في الدولة الواحدة وهو ما حدث بين معسكر سيدنا علي من جهة ومعسكر أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في موقعة الجمل من جهة أخرى. ومن بعده في صفين مع سيدنا معاوية بن أبي سفيان... صراع مرير انتهى بمقتل سبعين ألفاً من ذلك الجيل... كان حرياً بنا أن نتساءل عن قابلية ذلك للتكرار وأن نفكر في آلية إيجاد الحلول لهذا النوع من النزاعات... نوع من تنظيم الحياة السياسية يمنع الاقتتال ويحقق العدالة للجميع ولو حدث ذلك لكانت قفزة كبيرة إلى الأمام... ولكنها لم تتم وما زلنا وإلى اليوم لا نمتلك في البلاد العربية مثل هذه الآلية المستقرة.

تحدي تغير النظام السياسي

ماذا لو تغيرت فلسفة النظام بالكامل؟

ومع إشكالية الحروب وكثرة القتل والقتال بايع الحسن (رضي الله عنه) سيدنا معاوية بن أبي سفيان في موازنة بين الاستقرار أو استمرار القتال فقدم الحسن مصلحة الاستقرار على احتفاظه بالبيعة ونشأت موازنة الاستقرار/اختلال النظام التعاقدي... وهي أيضاً معادلة ما زالت تشكل تحدياً أمام المجتمع العربي.

وقرر معاوية بن أبي سفيان تعيين ابنه يزيد فتغير النظام السياسي تغيراً كاملاً... من عقد الاختيار إلى عقد التغلب وقامت الدنيا ولم تقعد على آلية الاختيار وتغير فلسفة الحكم، ولكن في المقابل تذررت البدائل فابن الزبير كان يرى الاختيار الحر بغض النظر عن علوية النسب وآل البيت (العلويون والعباسيون) كانوا يرون أن تكون الولاية فيهم، فنشأت الدعوة للرضى من آل البيت... أشكال مختلفة وتصورات مختلفة... وختمت بمفهوم ولاية المتغلب التي ستطبع مجمل العصور اللاحقة، ولن نجد لها حلاً حتى اليوم.

الخلاصة الأولى: ها نحن قد وجدنا أنفسنا ومنذ زمن مبكر، وفي الخلافة الراشدة الأولى، في خضم أسئلة لم نستطع الإجابة عنها وما زلنا فيها إلى اليوم... وهي:

١ ـ شكل الدولة ليس له تصوّر واحد.

٢ ـ آلية الاختيار لم نتفق عليها إلى اليوم.

٣ ـ النزاع على سياسات الحاكم لم نجد تصريفاً له.

٤ ـ وجود جبهتين متحاربتين ولم نوجد آلية لتصريف هذا النوع من النزاع.

٥ ـ تغير النظام بالكامل من فلسفة الاختيار إلى فلسفة القهر لم نجد لها حلاً حتى الآن.

أسئلة الاجتماع والتعايش

هل نجحت عملية الاستيعاب؟

كيف سنستوعب العرب واختلافاتهم بالإضافة إلى كل هذه الأمم الحديثة العهد بالإسلام؟

دخل الناس في الإسلام في البلاد المفتوحة، وهم أمم ذات كبرياء حضاري وذاكرة تاريخية، فقبول الإسلام لم يعنِ بالضرورة قبول السيادة العربية فبالإضافة إلى استمرار الصراع بين القلب القديم وقواه (مكة والمدينة) والقلب الجديد الشام والذي سينتهي بإسقاط الدولة الأموية لاحقاً... برزت مشكلة أكبر من مجرد الصراع المعهود فقد بلغت الفتوحات أوجها في الدولة الأموية، وضمت أقطاراً واسعة عجزت إمكانيات القلب عن استيعابها وهضمها... مما سيولد الحركة الشعوبية.

حين نواصل الرحلة لنرى تراكم التحديات غير المحلولة تواجهنا حالة الاختلاف والنزاع حول صلاح العصر الأموي بين شانئ لا يرى فيه خيراً وبين مدافع لا يرى فيه نقصاً وبين مقتصد يراه عصراً بشرياً بإنجازاته وإخفاقاته.

وبطبيعة الحال، فنحن هنا لسنا في وارد تقويم العصر الأموي إلا بالقدر الذي نعرف منه ما أضافه إلينا من قضايا تضاف إلى قائمتنا اليوم وتثقلها.

إن العصر الأموي شهد توسع الدولة المسلمة في آسيا وأفريقيا كما لم يحدث من قبل وشهد معماراً وملوكاً كباراً... ولكن لننظر إلى جانب آخر من الصورة، فالعلاقة بالقلب القديم الذي هو مكة والمدينة، والقلب الجديد وهو الشام، استمرت مرتبكة، والوفاق الداخلي الذي تم في عام الجماعة بقي هشاً؛ **ففي مكة ستولد حركة عبد الله بن الزبير وفي المدينة ستولد تحركات العلويين، مع مناصرة كبرى للفريقين من أهل الحجاز وعلماء مكة والمدينة والكوفة بالإضافة إلى حركة الخوارج التي لم تهدأ منذ الفتنة الكبرى.**

العصر العباسي

مشكلة الجبل والهضاب المحيطة أو لغة الجغرافيا السياسية؟

ونجحت تحركات الهاشميين المستمرة في إسقاط الدولة سنة ١٣٢هـ... لينشأ نزاع جديد بين الفرعين العلوي والعباسي سيطبع المرحلة اللاحقة من عمر الدولة العباسية الوليدة. ولكن إسقاط الدولة الأموية تم باستدعاء أهل خراسان للقيام بالمهمة، ومن هنا، دخل على الحكم في المنطقة مرة أخرى بحكم الجغرافيا (قوى الجبل) العنصر الفارسي؛ ليصبح قوة كبرى في العصر العباسي حتى عصر الرشيد الذي انقلب عليهم ليدخل إلى المعادلة العنصر التركي (قوى الهضبة الأناضولية) مع

المأمون... ومنذ العصر العباسي الثاني أصبحت هذه القوى هي أساس الحكم في المنطقة الإسلامية والقوى الرئيسة المكونة للسلطنات والنفوذ، وانتهى المشهد بعدها إلى الدولة المملوكية والدولة العثمانية والدولة الصفوية.

وما زلنا إلى اليوم، في المنطقة العربية وخاصة بلاد الشام وما بين النهرين بين قوى الجبال الفارسية وقوى الهضاب التركية، نبحث عن توازننا وكيف نضبط العلاقات لصالح الجميع.

هكذا تراكمت القضايا غير المحلولة في فضائنا، وما زالت هي ذاتها إلى اليوم جزءاً من المشهد.

ملاحظة حول فترات الازدهار والفتوحات: موجز سريع لفترات الفتوح والازدهار في العصرين الأموي والعباسي بالنسبة إلى مجمل فترة الحكم:

عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) وهو من أعظم خلفاء بني أمية	العصر الأموي	مدة الحكم ٢١ سنة بين (٦٥ - ٨٦هـ)		عصر زاهر بالمنجزات الاجتماعية والعمرانية والتنظيمية
الوليد بن عبد الملك	في العصر الأموي	مدة الحكم ١٠ سنوات (٨٦ - ٩٦هـ)	فتح الأندلس والمغرب وتونس والسند	عصر امتداد الفتوحات الكبرى الذي أخذ مدة عشر سنوات من العمر الكلي للدولة الأموية

عصر الرشيد	في العصر العباسي	مدة الحكم ٢٣ سنة (١٧٠ ـ ١٩٣هـ)	الترجمة ومشروع دار الحكمة	امتداد الازدهار تقريباً ٦٢ سنة أي بعد المأمون بعقد من عمر كلي للعباسيين بلغ ٧٩٨ سنة
عصر المأمون	في العصر العباسي	(٨١٣ـ٨٣٣م) مدة الحكم ٢٠ سنة	عصر تفتح العلوم وتشجيع البحث والنظر	
عصر عبد الرحمن الداخل	في الأندلس	المدة ٥٧ سنة	بناء وازدهار قرطبة	فترة الازدهار الكلية ٨٩ سنة من عمر الوجود ٧٨١
عصر عبد الرحمن الناصر	في الأندلس	المدة ٣٢ سنة	بناء الزهراء	
أما بقية الفترات فقد أدت الأطراف، أي العواصم البعيدة عن المركز والمستقلة عنه على أرض الواقع وإن استبقى بعضها المسمى، أدواراً حضارية عبر نظام السلطنات، فعوضت بدرجة ما غياب القلب في بغداد وأبقت مشعل الحضارة منيراً ولو بعيداً عن المركز.				

ولكن لغرض البحث الذي يتجه إلى كشف الآثار السلبية المتعلقة بالتراكم التاريخي الذي ما زال يشكل واقعنا حتى اليوم، لا بد من أن نعرّج على تفصيلات المشهد الأخرى بصورة أدق.

المشهد من الداخل العميق للعصرين الأموي والعباسي

إشكالية استخدام النص في تبرير الواقع المنحرف!

وللتعرف إلى شكل العصر الأموي والعباسي يلزمنا التعرف إلى القضايا التي أثيرت في ذلك العصر، فكل عصر يمكن التعرف إلى قضاياه من خلال ردود الأفعال تجاهها، وسنأخذ شاهداً شغل الفضاء العربي حينها وربما ما زالت ظلاله موجودة حتى اليوم:

المعتزلة كشاهد على العصر

استدعاء نظرية الجبر للهروب من المسؤولية الاجتماعية

وسنأخذ فرقة المعتزلة (البداية ٨٠هـ) لا لموافقتهم أو معارضتهم في ما يقولون بل لأنهم عكسوا قضايا عصرهم التي استدعت إنشاء هذه الفرقة الكبيرة، فالمعتزلة وهي فرقة كبيرة نشأت في العصر الأموي كردة فعل على قضايا محددة شغلت ذلك الفضاء... عرف عنهم خمسة مبادئ ناضلوا من أجلها وواجهوا بها تحديات ذلك العصر.

التوحيد

فأول مبادئهم وهو التوحيد وقصدوا به تنزيه الله عن المشابهة بخلقه، فنفوا الصفات فعرفنا من ردودهم أن هناك مشكلة تتعلق بالتجسيم، أي إن ممن حولهم من ينسب الجسمية لله (ﷻ). وأن الأمر منتشر في عصرهم فأفردوا له مطولاتهم ومناقشاتهم وهي قضية طال الجدل حولها وإلى اليوم هناك من يعود إليها.

ففي ذلك العصر كشأن القرون الوسطى في ذلك العالم لم يكن سؤال الإنسان... حريته... حقوقه... أحلامه تطلعاته... كيفية حمايته من الفقر والجهل والمرض والحروب... لم يكن كل ذلك هو الأمر المُلحّ على عقل الإنسان بل سؤال الخالق كيف نحمي جنابه من الهرطقات، فدارت معارك كبيرة حول تعلق الصفات بذات الله.

العدل

وثاني مبادئهم وهو العدل. وأطالوا النفس فيه رداً على من قال إن الإنسان مسير وليس مخيراً (الجبر)، فقالوا إن مقتضى العدل أن لا يعاقب الإنسان على ما لم يرتكبه وخاضوا في هذه المعركة جدالات واسعة. والسؤال لماذا طرحت قضية العدل وأخذت ذلك الحيز الجدالي الضخم في ذلك العصر وما هو الواقع العلمي الذي يقابلها... إنه الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المظالم... فقد وجد الأمراء وعلية القوم أن ذلك مخرج بسيط لمن يواجههم بالمظالم، فكل شيء مقدر سلفاً، وهم جزء من سيناريو لا يستطيعون الانفكاك منه فهم ليسوا ملامين... لقد كانت ردة الفعل المقابلة أن هذا الحجاج ينافي عدل الله الذي تهدد العصاة بالعقاب والمحسنين بالثواب فإن كان أجبرهم على المعاصي ولا مفر لهم منها فلماذا يعاقبهم... إن مقتضى العدل أن لا عقاب إلا لمن هو مختار... وأنتم يا من سرقتم أموال الناس لا حجة لكم بالقدر؛ إذ إن الله ليس بظالم ليعذّبكم على ما لا حيلة لكم فيه... ومن هنا نفهم ما قام به عمر بن عبد العزيز لإصلاح الأمور، برد المظالم وجعله من غيلان الدمشقي قيماً على رد ما أخذه أمراء بني أمية إلى الناس

أصحاب الحقوق... وهو الشخص الذي صلب بعد مقتل عمر بن عبد العزيز على باب دمشق بحجة أنه من نفاة القدر.

المنزلة بين المنزلتين

وثالث مبادئهم هو المنزلة بين المنزلتين، فقالوا إن مرتكب الكبيرة المصر عليها ليس بمؤمن؛ لأن الرسول (ﷺ) يقول: «**لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن وهو ليس بكافر لأنه يشهد أن لا إله إلا الله**» فعلمنا أن هناك من كان يحاجج أنه على الرغم من إصراره على المعصية ومجاهرته بها إلا أنه ما دام يشهد أن لا إله إلا الله فهو مسلم، والمسلم سيدخل الجنة وهو أمر ما كان ليقابل بأن تجعله الفرقة على رأس سلم أولوياتها إلا لأن انتشاره كان كبيراً لدرجة الحاجة إلى الرد عليه بفرقة علمية كبرى مثل المعتزلة.

الوعد والوعيد

والرابع قالوا بالوعد والوعيد، أي إن الله حين توعد مرتكب الكبيرة بالخلود في النار فذلك، وعد منجز وكذلك حين وعد الطائعين بالجنة فهو وعد منجز فعرفنا أن هناك من يرتكب المعاصي حينها ويقول إنه ما دام يشهد أن لا إله إلا الله فهو داخل الجنة لا محالة، وهو وإن عذب بذنبه قليلاً فمرده إلى الجنة وهو حينها سينسى العذاب.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وخامساً قالوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنه

ماضٍ إلى يوم القيامة رداً على اتجاه الإرجاء الذي يقول الإيمان تصديق بالجنان ونطق باللسان، وأن العمل ليس داخلاً في مقتضى الإيمان، وطالبوا بإرجاء الحكم على الناس إلى الآخرة.

ها نحن نرى نوعية التغيرات الاجتماعية المستجدة والقضايا التي أثارتها تلك التغيرات. والمعتزلة نشؤوا كفرقة في بداية القرن الثاني الهجري سنة ١٠٠هـ أي بعد أربعين سنة من وفاة معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، وفي نهاية عهد عبد الملك بن مروان، ومن مبادئهم عرفنا قضايا عصرهم المثارة وحّدتها.

وما زالت قضية الجبر تسكن في الفضاء الإسلامي، وتجد تجذّرها في بنية العقل الجمعي وفي الأمثال المنتشرة.

الاحتجاج بأحاديث سوء الزمان

فإذا أضفنا إلى تلك الترسانة استدعاء أحاديث سوء الزمان: «لا يأتي زمان إلا والذي يليه شر منه»، يصبح عندنا حجاج قوامه: «لا تستغربوا ولا تقاوموا التغيرات السالبة في المنظومة السياسية والاجتماعية، فهي جزء من أمر أخبرنا به النبي عليه الصلاة والسلام، وعلينا الرضى والتسليم بقدر الله الذي لا يغالب، وإن كان هناك من قصور أو ظلم فأصحابه قد كتب الله عليهم ذلك، ولا يمكنهم فعل غيره، والمؤمن سيدخل الجنة على كل حال ولو في المآل، والحساب على كل المظالم ليس في الدنيا بل يجب أن نرجئه إلى الآخرة»، هكذا أوجد الغطاء للانحراف والرضى بالواقع.

لقد بدأ عصر يتم استخدام الحجاج الديني لا لتقدم الحياة

في الترقي ولكن لوقف تقدم الإنسان والمجتمع، وهذا النوع من الحجاج سيدخل مع انتشار هذه المدرسة في مدارس الوعظ والتزهيد في الدنيا؛ ليصبح الرضى بأي واقع جزءاً من مطالب الدين كما يزعمون، هكذا حدثت التحولات السياسية السالبة، ووجدت لها غطاء من التدين، ولم تفلح ردود الأفعال الفكرية على وقف مسلسل التدهور التدريجي في مسارات الفكر الديني.

مجمل القول

خيرية الأفراد على المستوى الشخصي لم تعنِ بالضرورة النجاح في إنتاج إجابات كبرى لثلاث قضايا كبرى:

- أسئلة السياسة.
- أسئلة العلاقات البينية بين العرب.
- أسئلة العلاقة بغير العرب.

وتولدت آليات هروب من المسؤولية تعمقت في نظرية الجبر ونظرية سوء الزمان وكل تلك القضايا ما زالت تحيط بنا في واقعنا المعاصر.

إشكاليات القلب

لقد تم كثير من الإنجازات في العصرين الأموي والعباسي على الرغم من كثرة المحن والإشكالات الداخلية؛ فالعصر الأموي شهد أكبر الفتوحات الإسلامية للبلاد، ولو أخذنا فترتين من تلك الخلافتين ورأينا الشام في عصر عبد الملك بن مروان ودرسنا إنجازاته لرأيناه ملكاً عظيماً حقّق كثيراً، على الرغم من

كل التحديات التي واجهت ملكه، ولو درسنا عصر هارون الرشيد لرأينا بغداد الرشيد وهي تزدهي بالعلم والعلماء والسفراء والإنجازات وتجبى لها خيرات الحواضر القديمة... وحاضرة المأمون ودار الحكمة وحركة الترجمة.

ولكن هنا سننظر إلى المشهد من زاوية الإشكالاتِ الكبرى التي بقيت تعمل عملها في الجسد الإسلامي، وتنخره من الداخل على الرغم من كل الإنجازات الظاهرة، فالعلاقات الداخلية بين العرب أنفسهم وهم قلب الدولة بل بين خاصة البيت القرشي «بنو هاشم/بنو أمية»، بل خاصة البيت الهاشمي «العلويون/العباسيون»، بل البنية العربية ممثّلة في «القيسية/اليمانية»، فالعرب القحطانيون القادمون من اليمن ـ أرض الحضارات ـ في مواجهة العرب القيسية العدنانيين، كل تلك المشاكل بقيت عقبة كأداء وترتب عليها كثير من الإشكالات الكبرى، ويكفي فيها سقوط الدولة الأموية وهي ما زالت فتية لم يمضِ على قيامها إلا ٩٢ سنة، ولما تتم قرناً من الزمان بعد... وإن الدولة العباسية اختارت العنصر الفارسي ثم العنصر التركي لحمايتها فوقعت في قبضة هؤلاء القادة منذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢هـ)، وحتى قيام الدولة السلجوقية واستمر التدهور بعد ذلك.

علاقة الديني بالسياسي

لننظر إلى زاوية أخرى من المشهد وهي زاوية العلم والعلماء وعلاقتهم بالسلطة في العصرين الأموي والعباسي، وبنية الأفكار والقضايا وهي عملية لا بد من أن يتفهمها القارئ في

سياق التاريخ الذي تمت فيه. ولننظر إلى الأحداث التي أحاطت بتلك الفترة ولنأخذ العصر الأموي كمثال:

• فمعاوية بن أبي سفيان (٤٠ ـ ٦٠هـ) واجه داخلياً حركة الخوارج وتململُ العلويين ومعهم أهل مكة والمدينة والكوفة.

• وتواصل الخط مع يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ) فقُتل الحسين (عليه السلام) وتمت مهاجمة المدينة المنورة سنة ٦٣هـ، وانقسم المسلمون في عهد معاوية بن يزيد سنة ٦٤هـ إلى فريقين، فالشام بايعت معاوية بن يزيد والحجاز بايعت ابن الزبير.

• وفي عهد مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥هـ) فشل جيشه في اقتحام المدينة.

• وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) وهو من أعظم خلفاء بني أمية وأكثرهم إنجازاً، استمر الصراع مع ابن الزبير والخوارج والعلويين ثمّ جاءت حركة المختار بن عبيد الله الثقفي، وتمّ صلب عبد الله بن الزبير بعد اقتحام مكة، وأخمدت حركة ابن الأشعث سنة ٨٢هـ، وقطع رأسه على يد الحجاج.

• وتم قتل سعيد بن جبير٩٥هـ على يد الحجاج.

• واستمر خط العنف الداخلي مطرداً فقتل عمر ابن عبد العزيز مسموماً، إن صحت الرواية ـ وقيل: سببها أن مولى له سمه في طعام أو شراب ـ وأعطي على ذلك ألف دينار. فحصل له بسبب ذلك مرض، فأخبر أنه مسموم، فقال: لقد علمت يوم سقيت السم. ثم استدعى مولاه الذي سقاه، فقال له: [ص٧١٥] ويحك، ما حملك على ما صنعت؟ فقال: ألف دينار أعطيتها. فقال: هاتها. فأحضرها فوضعها في بيت

المال، ثم قال له: اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك، من كتاب **البداية النهاية** ولم يدم حكمه سوى سنتين (١٠٠ ـ ١٠١هـ).

• وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ) خرج يزيد بن المهلب وتكونت الدعوة العباسية لإسقاط الدولة الأموية.

• ومع هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) خرج زيد بن علي ثم انقسم البيت الأموي في عهد الوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦هـ)... ومع مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ) انهارت الدولة وجاء العباسيون للحكم.

وحين ننظر إلى الأحداث سنجد ظاهرة الشام/الحجاز (مكة والمدينة) أو معاقل آل البيت والأنصار والصحابة من جهة في مواجهة معاقل الأمويين في الشام التي تستند إلى ولاء أهلها، وفي خلفية المشهد باستمرار الخوارج في ثوراتهم التي لا تهدأ، وتدخل على الخط منطقة العراق عبر ثورات متواصلة.. في هذا الجو المضطرب سنرى علاقة الدولة بالأئمة الأربعة كشهود على العصر كي تزداد الصورة وضوحاً.

أربعة تصورات للحكم

ولنا أن نطرح سؤالاً مهماً في هذا السياق ما هو المخيال السياسي حينها وما هي الأطروحات المنتشرة والأكثر شعبية؟

داخل هذا الصراع سنجد أربعة أشكال من تصوّرات الحكم تتنازع فكرياً وسياسياً وعسكرياً في تلك البيئة فهناك:

• تصور الخوارج وهو يقوم على «بيعة اختيارية أي مسلم يتم اختياره من دون حصر في قريش».

• وتصور الزبير بن العوام «بيعة اختيارية لأي شخص من قريش».

• وفكرة آل البيت «بيعة شخص من آل البيت» وداخلها سؤال: «هل هم بنو العباس أم أبناء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)».

• وفكرة الحكم المتغلب «بيعة المتغلب على الناس سواء رضوا أو لم يرضوا».

ولكن الخوارج بقيت جهودهم خارج الإطار النسقي المقبول حينها بينما انهار مشروع ابن الزبير سريعاً وبقي مشروعان متنافسان، وهما: مشروع الحكم المتغلب، ومشروع آل البيت (آل محمد) حينها كما نشرته الدعوة العباسية! وقد مثّل الأمويون مشروع التغلب، ومثّل العلويون والعباسيون مشروع آل البيت، وبعد سقوط المشروع الأموي دار الصراع عنيفاً داخل مشروع آل البيت بين العباسيين والعلويين وصار الحجاج من يرث محمد (ﷺ)، أهو العم أم ابن العم، واعتبر المجتمع إرثاً وبمنطق الإرث تولى العباسيون الحكم وأقصوا العلويين... هكذا تشكّل المخيال السياسي، فالأمة بعدها أصبحت إرثاً يتم نقله من يد إلى أخرى عبر قاعدة التغلب هكذا انتهى الأمر عملياً.

شهود المرحلة من أهل العلم واصطدام الديني بالسياسي

السؤال هنا: كم كان الفضاء السياسي حراً حينها في السماح بمناقشة الأفكار الكبرى كالحرية والعدل ومشروعية النظام السياسي وغيرها من القضايا الكبرى؟

أبو حنيفة شاهد على العصر

الإمام أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠هـ)... عاش أبو حنيفة عصرين هما: الأموي والعباسي وقد ولد في بيت هواه علوي فأبوه تاجر كبير موالٍ لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فكان أبو حنيفة محباً لآل البيت معتقداً بحقهم في الخلافة مفضلاً لهم على غيرهم، وكان داعماً لهم، قيل بالمال سراً، وبالتالي كانت الدولتان الأموية والعباسية تختبران باستمرار ولاءه، ففي العصر الأموي في ولاية يزيد بن الوليد عام ١٢٦هـ، عرض عليه ابن هبيرة القضاء فأبى، فكان أن ضرب ضرباً مبرحاً على رأسه، ففر واختفى في الحجاز (قيل عامين أو أكثر)، ولم يظهر إلا بعد سقوط الدولة الأموية، ثم كان الامتحان الثاني في الدولة العباسية في أثناء حكم أبي جعفر المنصور الذي شكّ في مساندته لثورة النفس الزكية فعرض عليه القضاء وأن يصادق على أحكام الخليفة ويختم أوراقه، فرفض فكان أن ضرب ضرباً مبرحاً وسجن ومات في سجنه بعد أيام... ها نحن نرى جانباً آخر من المشهد، وهو علاقة مؤسسة الحكم بالعلماء فهنا نجد الإمام أبا حنيفة بين خيارين إما أن يخالف قناعاته، وإما أن يصمد وتكلفه حياته وهو خيار قاسٍ... فلم يكن مستغرَباً أن فضاء البحوث النظرية في مفاهيم العدل والحرية والكرامة الإنسانية، لم تلقَ الاهتمام الذي لقيته تفصيلات العبادات والمعاملات، وبالتالي، بقي هذا الفضاء أي فضاء البحوث النظرية المؤسسة للمفاهيم الكبرى ضامراً. ها نحن نرى أبا حنيفة منافحاً عن فكرة آل البيت بشكلها السياسي، فحينها لم تكن قد تحوّلت بعد إلى شكلها

الاعتقادي المعروف حالياً عند الفرق الشيعية وبالتالي... ففكرة الخلافة بمعناها التقليدي الذي يضعها في قريش عامة بدأ متنحياً في هذه الفترة لصالح فكرة آل البيت... ناهيك بفكر الخوارج، الذي يشيعها في الأمة ولا يجعلها حكراً على قريش، وهو يشكل مخيال اليوم والدولة عند كثيرين ولكنه، حينها، كان أيضاً فكراً معزولاً... وحينها لم تكن عند الدولة مشكلة مع الخط الديني الفقهي المعترف بها وحكم الغلبة، ولكنها كانت تضيق بالفقيه ذي الرأي المغاير... ولعل إدراك الفقهاء، مثل: القاضي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة، والإمام مالك في مرحلة متأخرة من عمره، لتلك الحقيقة أمن لها أماناً... فكلاهما تم تبني أطروحته بعد أن رتب أموره مع الدولة.

مالك شاهد على العصر

لو أخذنا الإمام مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩هـ)، فقد مر في علاقته بالسلطة، بخمسة مواقف على عهدة الرواة ولكن قبل ذكرها نكتشف من خلال النظر في روح حركة الإمام سنجد أنه لا يختلف في موقفه الضمني عن بقية أهل مكة والمدينة، فهو محب لآل البيت كما سيظهر لنا، وهذا ما سيكلفه ما مرّ به، ولكن لننظر إلى المراحل الأربع ولنبدأ بالعصر الأموي الذي كان في صراع مع العلويين وكانوا يشكون في ولاء مالك لهم فبعثوا له أحداً يسأله: «هل يجوز قتل الخارجين على الخلفاء؟» قال الإمام مالك: «يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز»، قال: «فإن لم يكونوا مثله؟»، قال: «دعهم ينتقم الله من ظالم

بظالم ثم ينتقم من كليهما»[1].

«وفي ١٣٦ هجرية دعا المنصور فقهاء المدينة: مالك وابن سمعان وابن ذؤيب وسألهم عن رأيهم في حكم العباسيين، فيغلظ له ابن سمعان وابن ذؤيب، ويرد مالك: أسألك الله وبقربك من رسول الله إلا أعفيتني فيقبل المنصور منه ويعفيه من الإجابة»[2].

«وفي مناسبة أخرى يدعو المنصور مالك وابن سمعان وأبا حنيفة ويسألهم عن رأيهم في حكم العباسيين، فيغلظ له أبو حنيفة وابن سمعان ويرد مالك: «لو لم يرك الله أهلاً لذلك ما قدر لك ملك أمر هذه الأمة»[3].

وتقوم حركة النفس الزكية في ثورة على العباسيين سنة ١٤٥هـ، فيسندها مالك بفتواه المشهورة التي تقول: «طلاق المكره لا يقع» وفسّرت على من بايع مكرهاً، فهو في حلّ من البيعة مما سهل الخروج مع النفس الزكية ومع فشل الثورة سيق الإمام مالك إلى السوق فجلد وخلعت كتفه.

وأخيراً تصالح مالك مع المنصور عام ١٤٨هـ الذي قربه وعرض عليه أن يعمم موطأه على الأقطار ويلزمهم به، فيرفض الإمام مالك ذلك.

---

(١) الخولي: **الإمام مالك**، ص٣٤٢.

(٢) الضيمري: **أخبار أبو حنيفة وأصحابه**، ص٥٩ ـ ٦٠.

(٣) المصدر السابق.

ها نحن نرى جانبين: **الأول**: مسائل الفقه التقليدية وهي فضاء مفتوح للفقيه، بينما الجانب **الثاني** وهو مساحة السياسة فقد كانت مغلقة عليه، بينما بقيت تلك العلاقة الملتبسة بين الديني والسياسي باقية إلى اليوم. وبالتالي، كان دور الفقيه محصوراً في قضاياه التقليدية، فحتى الرأي السياسي هنا أخذ شكل الفضاء المسموح به وهو «طلاق المكره»، فالفقيه لم يكن يستطيع التعبير الصريح عن رأيه... والسياسي ينتظر منه إما الولاء أو الصمت.

الشافعي شاهد على العصر

لنتقدم لنرى الإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ)، ووجه آخر من الصورة حيث اتهم الإمام الشافعي، في أثناء ولاية له في اليمن، بتهمة التشيع ويظهر أنها كانت تطارده بسبب نسبه إلى البيت النبوي وللنظر إليه وهو يعبّر عن ذلك في شعر رقيق:

يا راكباً قف بالمحصب من منى

واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى

فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضي

أو في موقف آخر حيث يقول:

إذا نحن فضلنا علياً فإننا

روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل

وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته

رميت بنصب عند ذكري للفضل

فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما

بحبّيهما حتى أوسَّد في الرمل

ومن هنا، جيء به إلى بغداد ليُضرَب عنقه مع عدد من الأشراف العلويين، فقتلوا جميعاً فتشفع له بعض أهل العلم عند الرشيد، فأطلق سراحه وغادر بغداد إلى مصر عازماً على نشر مذهبه، وبما أنه كان تلميذ الإمام مالك ومتضلعاً في فقهه، وهو قد تضلّع أيضاً في الفقه الحنفي على يد القاضي محمد ابن الحسن الشيباني، فلما قدم مصراً استقبله المالكية والأحناف ظناً منهم أنه سيفتي بمذهبيهما، فلما جلس للتدريس فإذا به يخالف قول كلا المذهبين فشكوه إلى الحاكم فأجلسه معهم في مجلس علم، فبزهم بعلمه فأعاده الحاكم إلى مسجده ليواصل تدريسه ولم يطق أحد المالكية المتعصبين قوله بخلاف المذهب، فضربه على رأسه فمات بعدها بأيام بحسب ما نقله صاحب **تحفة المحتاج** والبجيرمي على الخطيب قال: «وَسَبَبُ مَوْتِهِ أَنَّهُ أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ شَدِيدَةٌ فَمَرِضَ بِهَا أَيَّامًا، ثُمَّ مَاتَ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ سَمِعْت أَشْهَبَ يَدْعُو عَلَى الشَّافِعِيِّ بِالْمَوْتِ، فَكَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعِيَّ، وَإِلَّا ذَهَبَ عِلْمُ مَالِكٍ، فَذَكَرْت ذَلِكَ لِلشَّافِعِيِّ، فَقَالَ تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْت فِيه بِأَوْحَدِ فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا وَكَأَنْ قَدْ

تُوُفِّيَ بَعْدَ الشَّافِعِيِّ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ يوماً فَكَانَ ذَلِكَ كَرَامَةً لِلْإِمَامِ شَيْخِنَا. زَادَ الْبُجَيْرِمِيُّ: قِيلَ الضَّارِبُ لَهُ أَشْهَبُ حِينَ تَنَاظَرَ مَعَ الشَّافِعِيِّ فَأَفْحَمَهُ الشَّافِعِيُّ فَضَرَبَهُ قِيلَ بِكَلْيُونٍ وَقِيلَ بِمِفْتَاحٍ فِي جَبْهَتِهِ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الضَّارِبَ لَهُ فَتَيَانِ الْمَغْرِبِيُّ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَمِنْ جُمْلَةِ كَرَامَاتِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْفَى ذِكْرَ فَتَيَانٍ، وَكَلَامَهُ فِي الْعِلْمِ حَتَّى عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ».
ها نحن نطلّ على زاوية أخرى نمت في تلك الفضاءات وهي التعصب المذهبي الحادّ الذي قد يصل إلى استباحة دم المخالف.

التعصب المذهبي يطل برأسه

والتعصب المذهبي طبع تلك العصور وما بعدها، بشكل كثيف وفي تاريخ بغداد طوام من مثل هذا التعصب المقيت ولكن من الغريب أننا لم نمتلك تراثاً مقاوماً لمثل هذا السلوك وكل ما نجده شذرات لا ترقى لأن تكون مهاداً لحركة مقاومة للفتنة فهنا الشافعي نجا من شباك السياسة وسقط تحت يد التعصب المذهبي ولكن غيره مثل الطبري والنسائي والبخاري وغيرهم لم ينجوا من التعصب المذهبي أيضاً الذي يصل إلى درجة القتل كما في هذه الحادثة التي لم تكن استثناء فمن نجا من سيف السلطان لم ينج من عصا التعصب المذهبي في مسائل الفقه وفروعه.. أو بتهم مخالفة الاعتقاد.. فهل تغير الكثير في عصرنا؟

الإمام أحمد شاهد على العصر

تلبس السياسي بالعقدي

لو واصلنا الطريق في النظر إلى الإمام أحمد بن حنبل

(١٦٤ ـ ٢٤١هـ) سنرى جانباً آخر في فتنة الإمام أحمد، فالدولة في عصر المأمون تبنت قول المعتزلة إن القرآن مخلوق[٤]، ولأسباب ربما سياسية جعل المأمون يختبر الناس في قولهم في القرآن، فمن قال إنه كلام الله وغير مخلوق عذّبه وسجنه وقتله، وكان من ضمن الممانعين له الإمام أحمد فجلد وسجن، والقصة مشهورة ولكن ها نحن من فصل آخر ومشكل آخر وهو الإكراه في المعتقد حتى وإن كان تفصيلياً وليس له مترتبات عملية، فالمعتزلة وخصومهم كلهم مُقرون بأن القرآن جاء بالعقائد والشرائع والأخلاق واجبة التنفيذ، ولم يشذّ منهم أحد ولكن شرح علاقة الكلام بالخالق أو التعبير عنها افترق بين الفريقين وكان من الممكن أن يتعايش الفريقان لو نظرا إلى الجانب العملي من الصورة، ولكن الأمر لم يَسِر بهذا الطريق واستمر بعدها المسار الإكراهي في فروع الاعتقاد؛ ليشكل فضاء من الصراع لن يتوقف حتى اليوم وإن أخذ أشكالاً أخرى، فحين جاء المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) ناصر الفريق المضاد للمعتزلة فأُحرقت كتب المعتزلة وطوردوا. . . وانتشرت الصراعات العقدية بين المعتزلة والأشاعرة، والأشاعرة والحنابلة، والكل يشهد بالشهادتين ويقيم الفرائض ويحتكم للقرآن والسُّنَّة، ولكن بينهم ما صنع الحداد من الفرقة والخلاف، ومع المتوكل بدأ عصر انهيار الدولة العباسية وضعفها.

---

(٤) انظر: للتفصيل شرح القاضي عبد الجبار للفكرة في كتابه **الأصول الخمسة**، ص٥٢٨ وما بعدها.

فتوى الإمام أحمد

بين إكراهات الواقع واستدعاءات النص

ولننظر، قبل أن نغلق موضوع الإمام أحمد بن حنبل، إلى فتواه المشهورة التي شكّلت فضاء العصور السنية اللاحقة، وما زالت تُستدعى حتى الآن وهي تعبّر عن جانب من الفقه حين يلتقي بالسياسة، كيف سيشكل الفضاء الفكري الشرعي تصوره للسياسة، ودور الدولة والحدود المقبولة للحياة السوية لإنسان المجتمع، ونص الفتوى قبل التعليق عليها مهم: «**من خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو الغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله (ﷺ)، فإن مات هذا الخارج مات ميتة جاهلية. لا يحلّ قتال السلطان أو الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق، والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين**»[٥].

وهو قول الثوري والمديني قبله والأشعري والطحاوي وابن أبي العز ولخصه القاضي عياض (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ): «**إن رأي جمهور السُّنَّة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أن الإمام لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويفه**».

---

(٥) انظر: أصول السُّنَّة طبعة السعودية، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائي.

وعلى الرغم من أن الموضع فيه أقوال كثيرة وشروح وأخذ ورد، ولكن عموم الصورة هنا مهم، فتصور الحكم بهذه الكيفية مخالف بالكلية لما رأيناه طوال العصرين الأموي والعباسي اللذين خرجت فيهما على الأمويين والعباسيين أقرب المدن لإرث النبوة، مكة والمدينة، ليس مرة بل مرات، بل لم يتولَّ الأمويون إلا بالخروج على الإمام، ولم يتولَّ العباسيون إلا بالخروج على الإمام، ولم ينازعهم العلويون إلا بالخروج على الإمام ولم يضرب أبو حنيفة ومالك إلا بتسويغ الخروج على الإمام؛ فإن كان من خرج من هؤلاء خالف الآثار فكم عدد من خالفوا الآثار، وإن كان من مات منهم مات ميتة جاهليه فتلك طامة كبرى، فهم أصحاب القرن الأول والثاني أو قرون الخيرية والأقرب لإرث النبوة ثم كيف تصوّر الفتوى جموع المؤمنين الذين يقول الله (ﷻ) فيهم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي بين المؤمنين وتأمر الحاكم بأن لا يستبد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأمر الناس بتقبل ما يمس حقوقهم وحرياتهم وكرامتهم وسلمهم وحربهم، وهي قضايا وجودية في صلب دين الذي يريد الحياة الفاضلة، وهي ليست من الكماليات... وأهم منصب رفيع في المجتمع المسلم يمكن أن يسده شخص فاجر معطّل للحقوق وفاسق وظالم، فماذا سيكون عليه حال المجتمع حينها... لا يبدو أن ذلك لم يدر بخلد العلماء حينها، ولكنهم ظنوا أنهم يوقفون مسلسل الاقتتال على السلطة الذي كان شائعاً حينها، ويستبقون الحد الأدنى من الوحدة والاستقرار التي يمكن مواجهة مطامع الأعداء بها، في عالم لم تستقر فيه الحدود، والغلبة فيه للأقوى، وليس فيه نظام

دولي غير شرعة القوة والاستيلاء والمجتمعات الهشة والمتصارعة داخلياً يسهل سقوطها بيد أعدائها، إنها في الصميم فكرة تقديم مصلحة حفظ الوجود على استيفاء الكماليات ما عدّوه من الحاجيات والتحسينيات... وكل ذلك مفهوم وسهل الاستيعاب... ويبقى سؤالان مهمان، **الأول**: أثر صبغ الموقف المصلحي بالاستدعاءات النصوصية وتلبيسه حلة شرعية على جملة الفكر السياسي ونموه في الفضاء المسلم بعدها. **والثاني**: أثر الفتوى فعلياً في وقف ظاهرة الاقتتال على السلطة وخلق الاستقرار.

الحقيقة البسيطة نواجهها اليوم من دون لبس حيث لا يتوفر بين أيدينا تراث سياسي حقيقي، يمكن الاستناد إليه لبناء منظومات تجمع بين الالتزام بالدين والوجود والاستقرار والنمو في عصرنا الحالي، وشاهد الحال أقوى من أي حجاج سوى هذه الفتاوى وهي تغرد في خارج العصر تماماً، خاصة بعد نضج وعي البشر باحتياجاتهم الوجودية من لقمة العيش إلى الحرية والكرامة الإنسانية وإلى العدالة الاجتماعية، ورؤيتهم للنماذج غير المسلمة أو غير المتموقعة في ديار الإسلام، بشكل أصح التي حققت ما لم تحققه المجتمعات المسلمة من تقدم في النظم السياسية والتنمية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية على الأقل لمجتمعاتها... تلك هي الحقيقة الأولى فما كان صالحاً في عصر من العصور، بحكم المصلحة، أصبح اليوم غير مقبول بحكم المصلحة أيضاً، والشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد كما نعرف من الفقه المقاصدي.

هل نجحت الفتوى بوقف مسلسل الانهيار؟

والأمر الثاني إن نظرة واحدة إلى خارطة المسار السياسي الذي نشأ بعد طرح هذا التصور وشيوعه، تقول لنا إنه لم ينجح في وقف التدهور والتفكك ولننظر إلى عصر الإمام أحمد، ومصير الخلفاء كنموذج صغير، فعصر المتوكل كان بداية العصر الثاني للخلافة العباسية فهو قد أحضر الترك لحمايته بعد التخلص من الفرس في عهد من سبقوه.

المتوكل	٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ	أتى به الأتراك فحاول القضاء عليهم فقتلوه بعون ابنه المنتصر.
المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ	حاول التخلص منهم فقتله الأتراك وأتوا بالمستعين.
المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ	اصطدم بهم المستعين والتف حوله أهل بغداد ولكنه فشل وقتل.
المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ	قتله الأتراك وعيّنوا المهتدي.
المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ	قتله الأتراك وأتوا بالمعتمد.

ولو أنعمنا النظر في العصر الثالث والرابع للخلافة العباسية، وانتهينا بالعصر العثماني سنعلم أن مسلسل الخروج والقتال لم يتوقف، وأننا لم ننشئ منظومة فكرية سياسية تتفق مع الحياة الكريمة التي أرادها الله لعباده المؤمنين وللإنسانية جمعاء، وأشارت إليها الملائكة بمفهوم المخالفة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وفي حينها لم يكن أحد من البشر قد طوّر بعد منظومة أكثر عدلاً حتى يمكن

المقارنة، ولكن السباق سيختل بعد أن ولدت العصور الحديثة كما سنرى، ونجاح أمم كثيرة في تحقيق العدل والحرية بدرجات غير مسبوقة... وما زال على البشرية أن تحقق المزيد من التقدم نحو أفق لا يبقي هذه القيم الكبرى حكراً على مجتمعات دون أخرى... إن مهمة الإنسان السوي إعمار الأرض ووقف الإفساد وحقن الدماء، تلك هي مهمة الإنسان في الأرض التي ما زالت تنتظر من يقوم بها... هكذا قضى الفقه السياسي الذي تلبس بالفتوى الدينية على نمو التصورات السياسية، ومواكبة البشرية بعمل قالب حديدي جعل الاستثناء قاعدة مطردة، فحكم على الأصل بوضعية تاريخية معينة أو هكذا بدا لنا في هذه القراءة.

عالم العلاقات البينية المضطرب

يمكن قراءة التاريخ من زاوية الإنجازات ويمكن قراءته من زاوية الإخفاقات... لقد اتسعت الدول الإسلامية وضمت إليها بلاداً شاسعة مع اختلاف الألسن والثقافات، واختلاف المصالح والاحتياجات، ودخل الناس في الإسلام... ولكن عملية القضم تمت فألحقت المجتمعات الجديدة بدولة الإسلام، ولكن عملية الهضم كانت عسيرة... لقد تحوّل الناس إلى الإسلام كمعتقدات وكعبادات، ولكن بقيت العرقيات والجهويات والعصبيات على حالها ـ سواء في القلب (مكة والمدينة) كما شهدنا أم في الأطراف لاحقاً... لقد كان العرب يعرفون تقسيماً ثلاثياً اجتماعياً وتحته تقسيمات فرعية فالتقسيم الأساس: العرب والعبيد والموالي. ومع اتساع الدولة ونشوء الصراعات، وخاصة

في العصر الأموي، وُلدت نظرة دونية للموالي وصراع مستتر، ووُلد صراع عربي - عربي قوامه القيسية واليمانية كما وُلد قبلها صراع الهاشميين والأمويين، وخلفهم من لا يرى قريش القلب، كالخوارج... ثم صراع العلويين والعباسيين حول إرث محمد (ﷺ)، ومن رحم هذه التباينات ولدت الشعوبية، وما اختفى تحتها فدخل الفرس على المشهد مع العباسيين، ثمّ تلاهم الترك مع العباسيين أيضاً وفي حموة تلك الجلبة وُلدت الصراعات بين المذاهب الإسلامية والمدارس والفرق الاعتقادية، وانغلقت على نفسها باعتبارها الحق الممثّل للدين، وما عداها انحراف يجب الخلاص منه...

ومما يمكن الإشارة إليه في عجالة أن كبار رجالات الأمة، مثل: البخاري وابن جرير الطبري والإمام النسائي. والعلماء، مثل: جابر بن حيان، ومثل: العز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن رشد والكندي وغيرهم من أهل العلم والفضل، كلهم انتهت حياتهم بنهايات عاصفة نتيجة الصراعات والشبهات، وعدم وجود فقه ينظم الاختلاف ويضع حدوداً لما هو مقبول ومرفوض من السلوك، فَسادَ العنف وما زال هو الخط السائد حتى اليوم مع الفكر عموماً.

مرة أخرى لم ننشئ فضاء للتعايش ولا أدبيات له، وما زالت تلك الآفات تصحبنا إلى اليوم، ولا يجدي في الإجابة عن سؤال التعايش ذكر النصوص المجردة ولا الوقائع الاستثنائية، فكل ذلك لا يرقع خرق التاريخ ولا يحلّ إشكالية الواقع المعاصر الذي هو في جزء كبير منه امتداد للنفسية والمقولات الفكرية ذاتها.

العلاقة بالعلوم التطبيقية

لقد تمت الترجمة في أواخر العصر الأموي عبر عمليات تعريب الدواوين وترجمة الفكر السياسي الفارسي لتربية الملوك... ومع بداية العصر العباسي ومع الرشيد والمأمون بلغت الترجمة ذروتها، وخاصة لكتب اليونان والهنود؛ فدخلت الرياضيات والفلسفة وأصبحتا في متناول المتعلمين. وأُنشئت دار الحكمة كملتقى للحوار العلمي والنقاشات؛ بسبب ولع المأمون بالعلم والتعلم... ويومها كانت الفلسفة خليطاً كبيراً من العلوم؛ فهي تتناول قضايا الغيب كما تتناول الطب والرياضيات والكيمياء والفلك، كما تتناول السياسة والقيم... ومن دراستها نشأت بدايات العلوم على يد جابر بن حيان والرازي وابن سينا وغيرهم... ولم يلبث أن نشأ الصراع حاداً ومريراً بين المدارس الشرعية وبين المهتمين بالعلوم المترجمة... ولم ترحب البيئة الجديدة بهذه العلوم؛ فأطلق عليها علوم الأعاجم والعلوم الدخيلة واتُّهم المنتسبون إليها بالزندقة، ولخصت الأزمة بمقولة ما زالت تتردد:

كل العلوم سوى القرآن منقصة — إلا الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما قال... قال حدثنا — وما سوى ذاك وسواس الشياطين

فعلى الرغم من نبوغ علماء كبار، مثل: الرازي وابن سينا وابن رشد والفارابي وجابر بن حيان والزهري، ولكن مجمل البيئة لم يكن محتضناً لهذا النوع من العلوم، فكان وجود العلماء معتمداً على اهتمام الأمراء وحمايتهم وتقلّب أمزجتهم وأحوالهم، ولذلك وعلى الرغم من السبق الزمني عن الغرب في اكتشاف مقدّمات العلوم إلا أن عجلة القصور لم تسمح بالسبق

والاستفادة من الأفضلية لافتتاح العصور الحديثة التي ستفتتحها أوروبا بعدها بقرون... لقد تم استئناف العلوم في العصور الحديثة... ولكن العلاقة بالعلم انقطعت... لم يعد العلم كشفاً جديداً بل سبب ينتهي ببلوغ الوظيفة وهي مشكلة كبرى في البيئة العربية.

الخلاصة الثانية

كل هذه أسئلة كبرى مشروعة تنتظر إجابات، ولو أعدنا تلخيص ما سبق لأصبحت القائمة تضم:

١ ـ شكل الدولة ليس له تصوُّر واحد.

٢ ـ آلية الاختيار لم نتفق عليها إلى اليوم.

٣ ـ النزاع على سياسات الحاكم لم نجد تصريفاً له.

٤ ـ وجود جبهتين متحاربتين ولم نوجد آلية لتصريف هذا النوع من النزاع.

٥ ـ تغير النظام بالكامل من فلسفة الاختيار إلى فلسفة القهر لم نجد لها حلاً حتى الآن.

٦ ـ استخدام النص الديني في تبرير الواقع المنحرف.

٧ ـ الاحتجاج بالقدر على تبرير سوء العمل.

٨ ـ انتشار أفكار سوء الزمان وانعدام الأمل.

٩ ـ ازدياد تصوّرات الحكم المضطربة.

١٠ ـ اضطراب العلاقة بين الحاكم والفقيه.

١١ ـ التعصب المذهبي.

١٢ ـ توقف نمو المخيال السياسي بالفتوى.

١٣ ـ عالم العلاقات البينية المضطرب.

١٤ ـ عدم استقرار العلاقة بين التفكير الديني والفلسفي، فانعكس ذلك في مخاصمة للعقل والخوف منه وولّد خوفاً من العلوم التطبيقية.

الفصل الثالث

إشكالية العلوم الإسلامية

لماذا يلزم فهم هذه الإشكالات

لقد تراكمت التحديات بصورة مطردة في الفضاء الإسلامي عبر ألف وأربعمئة سنة، وقد شهدنا قسماً منها في شكل الأسئلة التي عجزنا عن الإجابة عنها وبقيت عالقة في فضائنا حتى اليوم، لكن هناك ما هو أعمق ويحتاج إلى فحص وبحث وهو المنظومات التي تشكل طريقة التفكير ونمط الاستجابات، وهذه هي أخطر مناطق البحث: فَبَين المنظومة العربية الفكرية السابقة للإسلام والمكوّنة من فكرة الغنيمة والمجد الفردي أو القبلي، وهي بقيت عالقة في فضاء المجتمعات العربية، وبين منظومة أخرى مكوّنة من المقررات التي توصل إليها العلماء في مجالات الحياة الدينية؛ تُشَكِّل الفضاء العام وتضعه في قوالب عميقة لا يمكن فك شيفرتها إلا بالغوص في العمق المنتج لها، وهي أدوات التفكير والمسلّمات التي تم تبنيها عبر القرون.

المخاوف من فتح هذا الملف

ومن المهم الانتباه إلى أن فتح هذا الملف محفوف بالمخاطر؛ لأنه دخول إلى النواة الصلبة التي يكمن فيها المشكل

وبعلاجها تتاح فرصة للحل... والخوف هنا من فقدان الثقة بكل هذه المنظومة التي توفر قدراً من الثقة والاستقرار وبتعريضها للمسألة يبرز الخوف من انكسار سلطة الدين على النفوس، ولكن من جانب آخر أليس هذا ما يحدث باطراد فحال الأمة اليوم لا يسرّ... ملايين من البشر يعيشون في الفقر والجهل والمرض والحروب يقتل بعضهم بعضاً لمجرد خلاف بسيط ويتمّ كل ذلك باسم الدين... تزداد باطراد دوائر الابتعاد عن الدين ويبقى في إطاره أقوام كثر يعيشون خارج العصر... خلقوا تديناً خاصاً بهم لا يقود إلا إلى مزيد من العجز... إن ما نخاف منه حادث والخوف ليس على الدين الحق فهو سيمكث، أما الزبد فسيذهب جفاء، وأما سوء أفهام البشر وما أضافوه من أفهامهم على الدين فلن يصمد للحجاج وستذهب به دورة التاريخ شئنا أم أبينا.

كيف تترابط أزمة العلوم وتؤثر في فاعلية إنسان المجتمع

عندما يعتقد الإنسان، في العمق، أن الأحداث ستتمّ بغض النظر عن جهده وعمله فأي جهد سيبذله كاف في رفع العتب... عندما يعتقد أن الأسباب غير فاعلة وأن مجرد تفكيره بها يخالف الاعتقاد، فأي عقلية علمية ستقوده إلى الكشف والبحث... عندما تتقزّم المفاهيم الكبرى، مثل: العدل والحرية والمساواة والعلاقات البشرية وتصورات الحرب والسلم، فلا تعود بقامتها التي أرادها الله لها، عندما يصبح عنوان الإنسان الصالح هو الانسحاب من الحياة... عندما تدخل النصوص

والإضافات على الدين بالاحتمالات والظنون... عندما لا تدقق مناهج النظر والاقتراب من النصوص... عندها لا تستغرب أن تفقد أي أمة فاعليتها.

١ ـ مشكلة المدخلات (علم الحديث ودرجة صلابته).

٢ ـ مشكلة الأدوات (أصول الفقه وأزمة الفقيه).

٣ ـ مشكلة الوعي الجمعي (الجبر وظلاله).

٤ ـ مشكلة تشوُّه العلاقة بالدنيا (التزكية وإشكالياتها).

٥ ـ مشكلة تقزّم قامة المفاهيم (التفسير).

النص والمنهج والمنتج

لو قلنا إن الدين هو النص الذي نطق به الوحي، والتراث هو تفاعل الإنسان مع النص كالتفاسير وأصول الفقه والفقه وغيرها من العلوم، فلنا أن نقول إن الأول مقدس، والثاني هو عرضة لقصور الفهم. فالأول وحي والثاني هو منتج بشري، ذلك الفارق المهم الذي سنقف عنده في الصفحات الآتية.

والجهد البشري وهو ما يستلزم دراسة معمقة ليس مقامها هنا، ولكن التعرف إلى أهم الخطوط التي يتكون منها التراث سواء منه المناهج أم التقريرات. فحين نظرنا إلى القيم الكبرى للدين، في ما سبق شاهدنا سمو النص وبدا سقف الإسلام عالياً محلقاً ولكن حين ننظر إلى واقع المسلمين الذي يفترض أنه يعكس القيم نرى مسافة واسعة.

لا شك في أن خط الحياة الإسلامية لم ينحرف عن نهج القيم الكبرى المؤسسة مرة واحدة، ولكن المسار مرّ بمحطات ساهم كل منها في الابتعاد عن قيم الإسلام الكبرى وإلى اختيارات معرفية صنعت المشهد القائم... هذه الاختيارات المعرفية تضافرت في بناء المشهد المركب الذي نعيش فيه، فلا نحن قادرون على العودة إلى الماضي ولا نحن قادرون على العبور السلس أو حتى الصعب إلى المستقبل... تتجاذبنا قوتان والغلبة لقوى الماضي على قوى التقدّم حتى الآن... فحين تصل أمة إلى أن تدافع عن نفسها بسلاح يصنعه الآخر ويتحكم فيه، وتأكل مما يزرع غيرها وتلبس مما يحيك غيرها وتتعالج من الدواء الذي يصنعه غيرها، فتلك أبلغ رسالة على وضعها الكلي بين الأمم.

الحياة باستمرار عبارة عن تفاعل بين المكونات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وهذه التفاعلات تكتسب في النهاية لغة دينية شئنا أم أبينا في مجتمعاتنا الإسلامية فكل شيء ينتهي إلى سؤال ديني؛ فأسئلة الإنسان الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية وحتى التقنية تمر عبر مرشحات دينية وتذهب إلى الفقيه بطريقة أو بأخرى ليقول فيها رأيه.

لقد رأينا سؤال السياسة وصراع الدولة الدينية والدولة المدنية وأطروحة الدولة المدنية ذات المرجعية الإسلامية، وكيف أنتج السؤال جماعات سياسية وجهادية وتكفيرية كانت عبر التاريخ وما زالت تربك المشهد العقلي والفعلي للمسلمين وصراعات العلاقة بالآخر المخالف من المسلمين سني أو شيعي

أو أباضي أو أشعري أو معتزلي أو سلفي أو صوفي، كيف ظهرت في علم الكلام والفرق وأنشئت حالات قتال بَينِيْ وصراعات داخلية ما زالت تقصم ظهر الأمة حتى اليوم ولم تخفت الحماسة لإثارتها على الرغم من حال الأمة اليوم، وصراعات العلاقة بالآخر المختلف ديناً هل هي العدل والتعاون أم الإذلال والقهر أو الحرب العاجلة أو الآجلة.

وما زال النقاش جارياً حول تلك البدهيات التي غادرتها البشرية ونظّمت فضاءها، وما زالت قضية المرأة قضية شائكة، تثار حولها المعارك من وجهها إلى ملابسها إلى عملها إلى تنقّلها، وما زالت قضايا الرق مطروحة على بساط البحث في بعض البلاد، وما زالت قضايا التعليم والمادة الدينية المقدَّمة إلى الطلاب محلّ تنازع، وما زالت قضية الاقتصاد عالقة لا حلّ لها وقل ذلك عن الفنون والمسرح والسينما والتلفاز والتصوير والموسيقى للشؤون الفردية، مثل: اللحية والثوب... كل شيء عالق... موضوع القيم: كالحرية والعدالة والمساواة، كلها ما زال التنازع حولها جارياً بل الشورى وتسيير المجتمعات... عالم اليوم هل يستحمل كل هذه القضايا وهل سنبقى في معاناة لا نهاية لها بسبب كل ذلك... لا أحد يستطيع الإجابة... على الرغم من كثير من العواطف والاعتذارات التي لم ولن تجدي في زحزحة الواقع... وأمامنا الطريق السوي لنحدد مكمن الأوجاع ومصادر كل هذا الاضطراب حتى تنصرف الجهود لا إلى نزاعات السطح، ولكن إلى علاج قضايا العمق والأفكار المنشئة لأوجاع السطح.

١ ـ تحدي علوم الحديث
(مشكلة المدخلات)

من المهم في هذا العصر إيجاد آلية معيارية دقيقة قبل نسبة أي شيء إلى الدين.

مختصر فهم قصة علم الحديث وتحدياته:

قال الزهري: «لولا أحاديث كانت تأتينا من قبل المشرق ننكرها... لا نعرفها... ما كتبت الحديث ولا أذنت بكتابته».

تؤدي الأخبار دوراً كبيراً في صناعة الحياة الإسلامية، فهي زاد الفقيه حين يصنع أحكامه وهي عدة المؤرخ حين يسوق مروياته، وهي عدة الواعظ وهو يرقق القلوب، وهي مصدر الحركي وهو يسوق الأيديولوجيا إلى جماهيره، وهي عدّة الناظر إلى المستقبل في قصص المهدي والدجال وآخر الزمان... هي بهذا المعنى مربط الفرس في تشكيل العقل المسلم وفي تشكيل قراراته وإن كانت ليست الوحيدة.

والدين بلغنا إما عن طريق التواتر العملي عبر العصور؛ حيث شاهد الناس مثلاً، صلاته (ﷺ) ووضوءه وحجه، ونقلوا ذلك من جيل إلى جيل وهناك السُّنَّة القولية أو الأخبار التي تفوّه بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو أقرّ أصحابها على فعل أو قول.

ونظراً إلى خطورة النوع الثاني من الأخبار، وهو المنقول شفاهة، حظي بالعناية والتدقيق حتى يحفظ الدين مما ليس منه

ووضعت له الضوابط، وأقيمت له المناهج للتأكد من نسبته إلى الرسول (ﷺ).

ومعرفة التسلسل التاريخي لتلك العناية مهم جداً لمعرفة هذا الجانب من الدين، ودرجة التيقن من نسبة أي شيء إلى الرسول (ﷺ) وهو القائل: «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**»... وإعادة النظر في هذا العلم ومتعلّقاته مهمّة شاقة ومترتباتها كثيرة، فالكثير من الناس يتساءل ماذا لو تم تحديث العلم، واختلفت وسائل التدقيق، واختلفت النتائج؛ فماذا سيحدث لمعارفنا الفقهية ولسائر العلوم التي تعتمد على المادة الحديثية؟ والإجابة بسيطة سيكون قد نفي عن الدين ما ليس منه، وبقي ما هو دين على وجه الحقيقة، فالدين محفوظ من الله وما أضافه الإنسان بسوء نية أو بنقص منهج، فهو قد أُلحق بالدين وليس منه.

رحلة العلم

النقاش هل أذن الرسول بكتابته، أم لم يأذن... سؤال تجاوزه الزمن!

حين نفتح سيرة العلم نجد ردوداً على من احتجّ بأن الرسول (ﷺ)، قد نهى عن كتابة الحديث، لما رواه أبو سعيد الخدري: «**لا تكتبوا عني**»، بسوق أخبار عن إذنه (ﷺ) بالكتابة، وعن ممارسة بعضهم فعلياً للكتابة... ولكن بغض النظر عن كلّ ذلك الجدل فلم يردنا شيء مكتوب من تلك الفترة، وحتى بعد أمر عمر بن عبد العزيز بالكتابة، لم يصلنا شيء مدوّن من تلك

الفترة ونحن نتعامل مع ما وصل من الكتب بعد ١٥٠ سنة من الهجرة، فتلك هي نقطة البداية على كل حال.

السؤال هل وصلتنا النسخ الأصلية أم لم تصلنا... سؤال تجاوزه الزمن!

فقد أورد أبو سليمان الباجي، في كتاب **التعديل والجرح**، قول أبي إسحاق المستملي: «انتسخت كتاب البخاري من أصله، كان عند محمد بن يوسف الفربري، فرأيته لم يتم بعد، وقد بقيت عليه مواضع مبيضة كثيرة، منها تراجم لم يثبت بعدها شيء، ومنها أحاديث لم يترجم عليها، فأضفنا بعضها إلى بعض!».

ويضيف أبو سليمان الباجي بعد إيراده لهذه الرواية: «ومما يدل على صحة هذا القول: إن رواية أبي إسحاق (المستملي)، ورواية أبي محمد (السرخسي)، ورواية أبي الهيثم (الكشمهيني)، ورواية أبي زيد (المروزي)، وقد نسخوا من أصل واحد، فيها التقديم والتأخير! وإنما ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم، في ما كان في طرة، أو رقعة مضافة، أنه من موضع ما فأضافه إليه».

وممن أجيز مع الفربري برواية الصحيح أربعة حفاظ، هم: حماد بن شاكر النسوي الحنفي (ت.٢٩٠هـ) وإبراهيم بن معقل النسفي (ت.٢٩٥هـ) وأبو طلحة، منصور بن محمد بن علي بن قرينة البزدوي (ت.٣٢٩هـ) وأبو عبد الله الحسن بن إسماعيل بن محمد المحاملي (ت.٣٣٠هـ). وجلّ هذه الكتابات ضاعت، وبقيت رواية الفربري والنسفي إلى أن جاء شرف الدين، أبو

الحسين علي بن محمد الحلبي **اليونيني** (ت.٧٠١هـ)، واعتمد تحقيقها على أربعة أصول: رواية أبي العباس أحمد بن الحطيئة المصري من طريق أبي ذر الهروي، ومن مسموع الإمام المحدّث المغربي أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي وسماع أبي القاسم علي بن الحسين الدمشقي (ابن عساكر) ومسموع أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي... ثم ضبطها شرف الدين على يد شيخه اللغوي المشهور ابن مالك، وسماه ابن مالك **شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح**.

ومنه اشتهر **فرع الشيخ عبد الله بن سالم بن محمد البصري المكي الشافعي (ت.١١١٤هـ/١٧٠٢م)**، وأصبح هو النسخة المتداولة اليوم في العالم الإسلامي.

ومن الغريب أن نصّ الفربري يزيد عن نص النسفي بحوالى ٢٠٠ رواية، والرواية النسفية تزيد ١٠٠ رواية عن أصل حماد ابن شاكر النسوي ولم يحسم في التعليل.

والمسار ذاته أخذه **صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد**.

كل هذه النقاشات تجاوزها الزمن فالمهم الآن، أننا أمام كل هذه الثروة الخبرية المتوفرة بغض النظر عن صيرورتها التاريخية، وبالتالي من هنا يجب أن يبدأ الحديث.

تحديات واجهت العلم

كثرة الوضاعين

أخرج الإمام مسلم في مقدمة **صحيحه**، «باب النهي عن رواية الضعفاء».

قال طاووس اليماني: «جاء هذا إلى ابن عباس (يعني: بشير بن كعب) فجعل يحدّثه، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا فعاد له... ثم حدّثه فقال له: عد لحديث كذا وكذا فعاد له، فقال له: يعني بشير: ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا، أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا!؟ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدّث عن رسول الله (ﷺ)؛ إذ لم يكن يُكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه».

والملاحظ هنا أن الوضع بدأ مبكراً جداً وفي حياة الصحابة فهنا ابن عباس توفي سنة ٦٨هـ... وخاصة مع مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضوان الله عليه والحرب الأهلية في الفتنة الكبرى وما حولها.

وليس الوضع هو فقط ما شكل تحدياً، فحتى الشخص الثقة في نفسه، الورع في دينه، أيضاً لا يسلم من الوهم والنسيان أو الخطأ بل حتى التخليط في آخر عمره، ومن هنا برزت الحاجة إلى التنقيب عن كل راوٍ في كل مروياته؛ لتحديد الوضّاعين والضعفاء والثقات، فنشأ علم الجرح والتعديل ثمّ تطور الأمر إلى مباحث المتن وذات النصوص، كما دخلت مباحث اللغة والتاريخ والجغرافيا كعناصر مساعدة في غربلة الأخبار.

وقد صادفت عملية غربلة الأخبار عن الرسول (ﷺ) تحديات نجملها في الآتي:

تعريف الصحابي

قال ابن الصلاح (ت.٦٤٢هـ): «اختلف أهل العلم في أن

الصحابي من؟ فالمعروف من طريق أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله (ﷺ) فهو من الصحابة». قال البخاري في **صحيحه**: «من صحب النبي (ﷺ) فهو من أصحابه». وهم من بعد ذلك قسموا الصحابة بهذا المعنى إلى اثنتي عشرة طبقة، تبدأ بمن أسلم في مكة، مثل: كبار الصحابة، وتنتهي بصبيان وأطفال رأوا رسول الله (ﷺ) يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرها.

وهذه الطبقة الأخيرة، أصبحت داخلة في ما أعطي الصحابة من حصانة في بحث أحوالهم بمعنى أنهم عدول ثقات، لا يُسأل عن أحوالهم كباقي الرواة. وقد صنف الصاغاني (ت.٦٥٠هـ) كتابه **نقعة الصديان فيمن في صحبتهم نظر من الصحابة**، وفيه ترجمة لثلاثمئة وواحد وعشرين من هذه الطبقة.

ولبيان وجه الإشكال، لنأخذ عامر بن مسعود بن أمية فهذا قال فيه يحيى بن معين: هو من أصحاب التحقيق: له صحبه... وسئل قرينه الإمام أحمد: أله صحبة؟ قال: لا أدري... وذهب البخاري وهو تلميذهما إلى الجزم بأنه ليست له صحبة، فقال: لا صحبة ولا سماع...

وأكثر وضوحاً حال بُسر بن أرطأة، وهذا سيثبت الدارقطني الصحبة له قال: «له صحبة! ولم تكن له استقامة بعد النبي (ﷺ)...» وسيقول الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني بقوله: «مشكوك في صحبته...» فلم تحُل الصحبة الاصطلاحية في منعه من ارتكاب الآثام التي يندى لها الجبين.

وبطبيعة الحال، من لم تثبت له الصحبة وضع تحت المجهر، فمثلاً أبو رافع نفيع بن رافع الصائغ المدني، مولى حفصة بنت عمر بن الخطاب، يروي عن كبار الصحابة وهو متقدم في السن على كثير منهم إلا أنه يعدّ ضمن الطبقة الثانية (التابعين)، وبالتالي لم تقبل منه المراسيل؛ أي: ما يرويه عن الرسول (ﷺ) من دون أن يسمعها مباشرة... ولكن لو كان رأى الرسول للمحة واحدة لقبلت هذه المرويات. والمشكلة ليست في تعريف الصحابي من حيث هو بل في مترتبات هذا التعريف من الحمائية التي يسبغها على الراوي.

الإنسان والسهو والوهم والغلط

قال عبد الله بن المبارك في ما نقله عن ابن رجب الحنبلي في **شرح علل الترمذي** (ص١١٥): «من يسلم من الوهم وقد وهمت عائشة جماعة من الصحابة».

قال سفيان الثوري كما نقل الخطيب البغدادي في **الكفاية في علم الرواية** (ص١٧٤): «ليس يكاد يفلت من الغلط أحد... إذا كان الغالب على الرجل الحفظ فهو حافظ وإن غلط. وإذا كان الغالب عليه الغلط ترك».

قال يحيى بن معين في **تاريخ بن معين** برواية الدرري: «من لا يخطئ في الحديث، فهو كذّاب».

ونختم بقول يلخص تلك المشكلة:

قال الإمام مسلم في كتاب **التمييز**: «فليس من ناقل خبر وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا، وإن كان من أحفظ

الناس، وأشدهم توقياً وإتقاناً لما يحفظ وينقل، إلا والغلط والسهو ممكن في حفظه ونقله».

مشكلة غياب النسخ الأصلية

كانت الكتابة في ما قبل الطباعة تتم بالنسخ باليد، ومع النسخ باليد يأتي السهو والخطأ وكما رأينا في تاريخ تداول نسخ البخاري أن الفارق بين النسخ ١٠٠ ـ ٢٠٠ حديث، فكيف دخلوا على النساخ؟ ومن أين؟ وهل تمّ ذلك باجتهاد النسّاخ لملء الفراغات في النسخ التي بين أيديهم؟.. إن معرفة الحقيقة تتطلب وجود النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف، لمقارنتها بعلم النسّاخ فإن اختفت فيبقى السؤال قائماً عن وسيلة التدقيق.

مشكلة إرسال الصحابي

فالصحابة لم يكونوا يحضرون مع الرسول (ﷺ) كلهم، كل المجالس فالبعض يسمع من الحديث ما لا يسمعه غيره، فينقله هو باعتباره قد سمع من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الصحابة عدول والرسول حاضر وإمكانية التعرف إلى ما قال وما لم يقل ميسورة، فكان الصحابي يروي عن أخيه من دون تردد... ولكن بعد وفاته (ﷺ) نجد مشكلة كما هو في حادثة رواية أبي هريرة لحديث: «**من أصبح جنباً في رمضان أفطر**»، فلما سمعها بعض طلب التوثّق من أمهات المؤمنين فأخبرن بخلافها عن رسول الله (ﷺ) فلما أخبر بقولهن؛ أي: أبو هريرة قال: «**إنما أخبرنيه مخبر**»...

مشكلة اختلاف تقويم الأفراد

فالشخص الواحد قد يكون موثوقاً عند شخص، ومضعفاً عن آخر وبين بين عند ثالث... كما أن معايير ترجيح التوثيق والتضعيف إن اجتمعا غير دقيقة، وهو ما يجعل الفضاء واسعاً لبروز طرق تصحيح مختلفة، بحسب منهجية كل مهتم بالحديث.

ولذلك؛ فقولنا عن حديث إنه صحيح عند البخاري؛ يعني: أنه صحيح بمنهجيته... وقولنا إنه صحيح على شرط مسلم؛ أي: بمنهجيته المغايرة لمنهجية البخاري... وكذلك عن الترمذي وابن داوود والنسائي وأحمد وغيرهم... فحدّ التصحيح لا يصل إلى الصحة الذاتية، إنما هو متعلق بالصحة بالمقارنة بالمنهجية... فما يصح عند إمام، لا يصح عند آخر مغاير له في المنهجية... بالإضافة إلى أن طرق اعتماد الحديث اختلفت عند الأصوليين والفقهاء عن المحدثين.

نمو المنهجية الحديثية وتطورها بعد الصحابة

ومع انتشار وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول (ﷺ)، طوّر العلماء منهجيات عميقة في تتبع الرواة ومعرفة أحوالهم وسكنهم وشيوخهم وتلاميذهم ورحلاتهم وكناهم وأسمائهم ومروياتهم، وبرع في ذلك الأئمة الكبار يحيى بن معين والمديني والإمام أحمد وتوج كل ذلك بالإمام البخاري (ت.٢٥٦هـ)، فهو وارث علم الثلاثة الكبار وبرز كل ذلك في كتابه **الجامع الصحيح** الذي لم يُكتب لمنهجيته النمو من بعده.

كيف نفهم المسار؟

لقد وضع المحدّثون ستة شروط في الرواة لقبول أخبارهم:

الإسلام ـ العقل ـ الصدق ـ عدم الانقطاع أو الإرسال في السند ـ عدم التدليس ـ العدالة.

ولكن كل ذلك لا يخرج الحديث من دائرة الظنية:

وهذا ما يشرحه ابن الصلاح في مقدمته: «ومتى قالوا: هذا الحديث صحيح... فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة (في التعريف السابق)، وليس من شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر؛ إذ منه ما ينفرد بروايته عدد واحد، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول، وكذلك إذا قالوا عن حديث إنه: «غير صحيح»، فليس ذلك قطعاً بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقاً في نفس الأمر، إنما المراد بأنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور».

وما يقوله ابن الصلاح هنا إن الحكم على الأحاديث هو ابن المنهج، وليس ابن صدق الشيء في ذاته. والمنهج الذي أنتج ليس محكماً لدرجة يمكن الجزم بها أن الرسول (ﷺ)، نطق به أو لم ينطق.

وتلك شهادة مهمة في هذا السياق... والسؤال يبقى أن إلحاق أشياء بالدين ليست منه... يشكل خطورة بالغة... وخاصة أن هذه الأشياء حين تلحق بالدين يقوم بها تسيير الحياة في الحرب، وفي السلم، وفي السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وتبنى عليها النظريات باعتبارها ديناً، فكيف نرتفع بدرجة اليقين ونعرف

على الأقل درجة نسبتها إلى الرسول بدقة؟ ذلك هو السؤال الذي يتركه تعليق ابن الصلاح!

فبعد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بالتدوين، مرت خمسون سنة حتى نضجت المنهجيات، وظهرت أول المسانيد، مثل: **الموطأ ومسند أبي حنيفة ومسند الإمام أحمد** وتوالت بعدها الكتابات.

البخاري ونضج المنهجية

قلنا إن البخاري رضوان الله عليه كان تتويجاً لعمل جبار، استمر عقوداً طويلة في تنضيج مناهج محاصرة الروايات والرواة وانتهى بجمع كل الأحاديث وتدوينها، فالسلة الحديثية حينها وضع فيها كل الأخبار وأصبح تحت نظر العلماء، كما أن رجال الإسناد قد تمت كتابة سيرهم وكل ما يهم من تفاصيل حياتهم... وبحسب البخاري نفسه الذي يخبرنا أنه اختار **صحيحه** من ستمئة ألف حديث، موجود يومها والرقم كبير واختلف الناس في تفسير قول البخاري؛ لأن المتوفر اليوم لا يبلغ هذا العدد... وسبق البخاري عمل أستاذه الإمام أحمد بن حنبل الذي جمع في مسنده بين ٣٠ ـ ٤٠ ألف حديث، ولكن البخاري رأى حاجة إلى مزيد من الصرامة في التعامل مع المرويات.

فلسفة البخاري

لقد قدم لنا البخاري اتجاهاً وفلسفة قبل أن يقدم منتجاً، وهو كتابه **الجامع الصحيح**... ومن خلال الاسم، يتضح لنا أن

البخاري كان يرى أن ما جُمع وما دُوّن في المسانيد قبله يحتاج إلى تدقيق وصرامة فيه، وبما أن تعريف الحديث الصحيح كان مستقراً، حول «ما رواه العدل الضابط عن مثله من مبدئه إلى منتهاه وخلا من الشذوذ والعلة»، فالبخاري اشترط حدوث اللقيا بين الرواة، لا مجرد احتمالها واشترط أن لا يأخذ إلا الطبقة العليا من المشايخ، ولشرح ذلك للقارئ فلو كان تلاميذ الزهري الذين رووا عنه سبع طبقات، بحسب العدالة ودقة الضبط وطول الصحبة للزهري، فالبخاري سيعتمد الطبقة الأولى وسينتقي من الطبقة الثانية فقط، وسيترك بقية الطبقات، وعلى هذا المنهج جمع من السلة الحديثية أفضل ما فيها وترك الباقي لغيره، وهي سلة مكتظة، فإذا عرفنا أنه لم يرَ ما يستحق أن يوافق منهجيته إلا سبعة آلاف حديث مع المكررات من ٦٠٠ ألف حديث، علمنا حجم الاحتياط الذي قام به.

فلسفة البخاري قامت على أن لا ينسب إلى رسول الله (ﷺ)، إلا ما هو في قمة الصحة، فهل استمرت الفلسفة ذاتها واستمر رفع الأسوار احتياطاً من دخول ما ليس من الدين عليه.

التراجع عن منهجية البخاري وفلسفته وأثره

لكن سريعاً ما تم التخلي عن منهجية البخاري في حصار المرويات، فبدلاً من رفع سقف الشروط تم تخفيضها، فجاء مِن بعده تلميذه الإمام مسلم فتخلّى عن شرط اللقيا والتصريح بالتحديث لشرط احتمال اللقيا. ولم يكن ذلك هو الأمر

الوحيد، فبطبيعة الحال كان البخاري قد استأثر بالطبقة الأولى من الرواة الثقات وانتقى من الطبقة الثانية فلم يكن أمام الإمام مسلم إلا أن يختار من الطبقات الأخرى، وبالتالي نزلت القيمة الحديثية، فعُدّ الكتاب أدنى درجة بعد **صحيح البخاري** لاختلاف المصنعية وشروط الجودة...

واستمر بعدها النزول بسقف الشروط؛ فقلت الجودة باستمرار بدءاً من ابن ماجه وانتهاء بابن حبان ووصولاً إلى المعاصرين من المحققين.

ابن ماجه (ت.٢٧٣هـ).

ابن داوود (ت.٢٧٥هـ).

الترمذي (ت.٢٧٩هـ).

النسائي (ت.٣٠٣هـ).

ابن حبان (ت.٣٥٤هـ).

المعاصرين.

ونظراً إلى غياب المعرفة بالمناهج وحالة التقريض المستمر التي أحاطت كل الأعمال، ليس بالتقدير ولكن بالتقديس أو ما يقاربه، أصبح ما في هذه الكتب تأسيسياً معرفياً كاملاً للنموذج الأساس للعقل المسلم. وحتى لا يضيع الخط الناظم لتحدي تجديد علوم الحديث أو آلية فرزه سنقدم لذلك بجدول تبسيطي:

القضية الرئيسة	كم درجة تأكدنا أن الأحاديث التي بين أيدينا صحيحة وبأي درجة من اليقين نتمتع؟	لا توجد حتى الآن مسطرة واحدة متفق عليها لمعرفة درجة صحة الحديث فكل عالم أنشأ مسطرته التي خالفه بها غيره!
ما الذي ينبني على تصحيح الحديث؟	الإسلام يتناول كل جوانب حياة المسلم، والفقيه يعتمد على النصوص الحديثية في توجيه الفتوى... والفتوى تتناول الدين والعقل والنفس والمال والعرض. ومن هنا فحياة الإنسان المسلم... بل المجتمع المسلم تتأثر بشكل جذري بفضاء النص المنسوب إلى النبي عليه الصلاة والسلام. ومن هنا برزت أهمية التحقق من المرويات... والسؤال كم درجة هذه الدقة؟	نموذج حديث أبي بكرة: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وبه حرّم نصف الأمة من الولاية العامة.
خطورة المسألة اليوم!	تواجه الأمة عصراً يحتاج بشكل غير مسبوق إلى الاجتهاد في السياسة والاقتصاد والاجتماع وأي استدعاء لنص مؤثر في قرارات حاسمة في حياة الأمة، وبالتالي لزم العودة إلى تدقيق المناهج... والسؤال هل بقي هناك ما يمكن أن يضاف إلى جهود السابقين؟	هناك صراع وجود سياسي واقتصادي وعلمي... إلخ وتؤدي الأحاديث دوراً كبيراً في الاجتهاد في هذه المسائل.

إشكاليات البداية	تدوين الأحاديث النبوية بشكل منظم وواسع تم على رأس المئة الأولى من الهجرة في عصر عمر بن عبد العزيز، أما قبلها فقد سادت فكرة المنع ولم يصلنا شيء صلب مدوَّن إلا بعد ١٥٠ عاماً من الهجرة، فحتى الذي كُتب في عهد عمر بن عبد العزيز لم يصل منه شيء في الغالب.	لما رواه أبو سعيد الخدري: «لا تكتبوا عني»، وهو ما استمر في القرن الأول حتى عصر عمر بن عبد العزيز مع استثناءات قليلة قيلت في باب الاحتجاج بالإذن، أما الكتب فننظر إلى عصر التدوين: مالك (ت.١٧٩هـ) أبو حنيفة (ت.١٥٠هـ) أحمد (ت.٢٤١هـ) البخاري (ت.٢٥٦هـ) مسلم (ت.٢٦١هـ) أبو داود (ت.٢٧٥هـ) ابن ماجه (ت.٢٧٥هـ) الترمذي (ت.٢٩٥هـ) النسائي (ت.٣٠٣هـ) لاحظ الفترة بين (٢٤١ ـ ٣٠٣) حيث وضعت الكتب فهي فترة تبلغ تقريباً ٦٣ سنة.

تحدّي الإسناد	منذ عصر مبكر بدأت عملية وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول (ﷺ) كما علمنا من ابن عباس، وسيعيد التذكير بآفة الوضع الإمام الزهري في عصر عمر بن عبد العزيز، وهنا ستبرز ضرورة التأكد من الإسناد وما فيه من رواة فرداً فرداً وإنشاء العلوم لمواجهة هذا المطلب.	كثر وضّاع الحديث بشكل استدعى وضع علوم لضبط الرواة والتحقق من المرويات.
تحدّي آحادية الإسناد	لم تكن هناك مشكلة في الحديث الذي يرويه في كل طبقة من طبقاته جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، ولكن كانت هناك مشكلة في الحديث الذي يرويه فرد أو أفراد عددهم قليل، بحيث لا يستحيل عقلاً تواطؤهم على الكذب، ويجوز في حقهم الوهم والخطأ أو الهوى... وتلك مشاكل لا يسلم منها البشر.	فحين يكون الراوي في أي طبقة فرداً أو عدداً قليلاً، يكون احتمال الوهم والخطأ عالياً ناهيك بالأهواء وأشكال الانحياز.
تحدي اللغة ودرجة الحساسية تجاه الألفاظ	فرواية الأحاديث لم يكن يلزم فيها الالتزام باللفظ كما في القرآن، ومع تعدّد النقل ما الذي يضمن بقاء اللفظ كما هو... والمترتبات التي تنتج من الألفاظ في غاية الخطورة والتأثير في إصدار الأحكام.	مشكلة الرواية بالمعنى! وأثرها على الفقه.

تحدّي السماع غير المباشر	فالصحابي يروي عن رسول الله (ﷺ)، وهو قد يكون سمع الحديث من صحابي آخر فهو نقل غير مباشر حينها.	كما في حادثة أبي هريرة لرواية من أصبح على جنابة في رمضان فليفطر... فحين أنكرتها أمهات المؤمنين... كان الرد «إنما أخبرنيه مخبر».
تحدي تحديد من هو الصحابي	فحين يصنَّف شخص بأنه صحابي فهو تلقائياً، يصنّف بأنه عدل ولا ينظر في حاله، مثل من بعد الصحابي إذ يمر بمفرزة تقويمية، قبل قبول ما يقول أو اعتماده وفي الطبقة الأخيرة من الصحابة وهم صغار السن... وهذه الطبقة ستولد كتابات في المختلف في صحبتهم للرسول.	
العلوم التي أنشئت لمواجهة هذه المتطلبات	علم الجرح والتعديل والتراجم وعلم مصطلح الحديث.	فكم دقة تلك العلوم ومعياريتها... أي هل هي مسطرة واحدة أم عدة مساطر تختلف باختلاف كل عالم؟

نضج المنهجية تم في عصر الثلاثي	يحيى بن معين وأحمد بن حنبل والمديني، وهي الفترة بين نهاية القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الثالث الهجري.	أحمد بن حنبل (ت.٢٤٠هـ) ويحي بن معين المديني.
وضع شرط الضرورة في الراوي	الإسلام والعقل والصدق وعدم التدليس والعدالة.	وسنطلق عليها شرط الضرورة باعتبارها الجزء الذي لا يستغنى عنه في الراوي.
وضع تعريف الحديث الصحيح	الحديث الصحيح ما اتصل سنده برواية العدل الضابط عن مثله من مبدئه إلى منتهاه وخلا من الشذوذ والعلة.	
السؤال الكبير هل ينفي ثبوت كل الشروط السابقة في الراوي والحديث أنه يبقى ظنياً	يرى جلّ العلماء كما يخبرنا ابن الصلاح في مقدمته أن الحديث مع ذلك يبقى ظنياً فلا قولنا إنه صحيح هو قطع بصدوره عن الرسول (ﷺ)، ولا قولنا إنه ضعيف ينفي احتمال صدوره عن الرسول...	مقدمة ابن الصلاح، ص٧

البخاري تتويج لهذه المنهجية	البخاري هو تلميذ الإمام أحمد وقد ارتأى على الرغم من وجود مسند الإمام أحمد، أن يختط منهجاً أكثر تشدداً في قبول المرويات؛ بحيث لا يأخذ إلا أعلاها درجة ولنا أن ننظر في منهجيته كذروة لها ما بعدها!	روح عمل البخاري هي حصار المرويات بمنتهى الصرامة حتى نتأكد بقدر الوسع من أن ما بين أيدينا دين...
كم الأحاديث في السوق الحديثية محدود	وروي هنا قول البخاري إنه اختار صحيحه من ستمئة ألف حديث، فلم يصحّ عنده بحسب شرطه سوى سبعة آلاف ومئتين وخمسين مع المكررات وبحذف المكررات لن يزيد العدد عن ثلاثة آلاف حديث وفي الأرقام خلافات كثيرة.	٦٠٠,٠٠٠ :٣٠٠٠ اليوم المتوفر في الموسوعة الحديثية قد لا يزيد عن ٢٥٠,٠٠٠ حديث فقط.
ماذا نقصد أن صحيح البخاري هو أصح الكتب الحديثية	نقصد بذلك أن البخاري وضع أعلى الشروط من حيث التدقيق في الرواة واشتراط سماعهم من بعضهم، وليس مجرد معاصرتهم لبعضهم واختار من طبقات الرواة أعلى طبقة وترك بقية الطبقات لغيره، ومن هنا فقد كانت زبدة الأحاديث القوية إسناداً من نصيبه؛ فماذا يعني ذلك؟	البخاري كان أول الواصلين إلى سوق الحديث وهي بكر، فقطف أول ثمارها من الأحاديث والطبقة الأولى من الرواة الأوثق، وترك لمن بعده أقل القليل من حيث شروط الجودة.

انهيار سقف الشروط	لأن السوق الحديثية محدودة والبخاري قد أخذ زبدتها، بأعلى الشروط وأفضل طبقة من المشايخ، فلم يكن في وسع من جاء بعده أن يصدر كتاباً إلا بتخفيض الشروط وهذا ما حدث فكل إمام خفض في الشروط بحسب ترتيب الزمن إلى العصر الحديث، وبالتالي فقد توالى سقف تخفيض الشروط لوضع الكتب بدل تشديدها.	حاول أبو عبد الله بن الأخرم (٢٥٠ - ٣٤٤هـ)، وهو من العلماء الكبار البارعين في مجال تدقيق المرويات الزيادة على الصحيحين وانتهى إلى القول: «قلما يفوت البخاري ومسلم شيء» راداً على من قالوا إن البخاري ومسلم تركا كثيراً من الصحيح.
أثر انهيار سقف الشروط في عصرنا	انهيار سقف الشروط بعد البخاري جعل السوق الحديثية تمتلئ بما يوصف بأنه صحيح، وهو بشرط البخاري ليس بصحيح، ولكن بعد تخفيض الشروط أصبح المرور يزداد سهولة مع الوقت وأصبح كل ذلك متداولاً في صنعة الفقه، وفي تشكيل العقل المسلم في غير الفقه عبر تجويز استخدام الضعيف في فضائل الأعمال.	

معلومة مهمة	أصول كتب الحديث، مثل: البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد والموطأ كلها مفقودة، كما إن النسخ المختلفة فيها فروق في عدد الأحاديث، وليس هناك وسيلة لمعرفة دور النسّاخ في هذه الكتب عبر الزمن! كما إن النظر إلى المتن لم يأخذ حظ النظر إلى السند ذاته.	النظر إلى المتن في اتساقه مع مقررات القرآن، أو مقابلته بالمعارف العلمية المتيقنة قبل إدراجه، وليس فقط معرفة إن كان به شذوذ أو علة.
لماذا نحتاج إلى التجديد اليوم	إن الوصول إلى مرحلة نستطيع بها أن نجزم بمنهجية قرآنية بسلامة النقل عن رسول الله (ﷺ)، هو من أوجب الواجبات لمعرفة ما هو دين عن يقين وما هو ليس بدين.	
مقترحات التجديد[1]	• منهجية القرآن (شرط التعزيز) • منهجية البخاري (شرط الضرورة)	وشرط التعزيز، قد سئل الحافظ محمد بن الفضل المقدسي

(١) عندما نقول مقترح تجديد العلم... فهو مقترح للمدارسة... وقد استعرنا هذه المعايير من الدكتور محمد عمراني حنشي في دراسته المهمة في كتاب الهندسة الحديثية؛ حيث يقترح نظاماً معيارياً يزيد من صلابة المنهجية التي يتم بها التحقق من المرويات مستأنفاً لجهد البخاري وفلسفته، وهي دراسة حرية بالنظرة المعمقة نحو استئناف عصر جديد.

	• منهجية المديني («الخبر إذا لم تخرج كل طرقه لم يعرف مخرجه») • عمل معيار موضوعي لقياس درجة التوهم أو الخطأ المحتمل في رواية الثقات بغض النظر عمن أخرجه أو عالجه.	بخصوص الذي قرره الحاكم من أن البخاري ومسلم التزما هذا الشرط، فأجاب في كتاب **شروط الأئمة الستة:** «إن البخاري ومسلم لم يشترطا هذا الشرط ولا نقل عن واحد منهما أنه قال ذلك... والحاكم قدر هذا التقدير وشرط لهما هذا الشرط على ما أظن! ولعمري! إنه لشرط حسن لو كان موجوداً في كتابيهما».

٢ ـ الفقة وأصوله
(مشكلة الأدوات)

رحلة علم أصول الفقه

الفقيه بين فقه الاستباق وفقه الالتحاق

الناظر إلى أحوال الأمة اليوم يرى أنها تسبق الفقيه بإقرار

الواقع ثم يلحق بها الفقيه بعد حين... والفقهاء المقصودون هنا هم التيار الرئيس العام؛ ففي كل عصر يخرج فقهاء لهم آراء جريئة سابقة لأقرانهم، ولكن الجماهير تضع أعينها على التيار الرئيس غالباً، ففتاوى ابن تيمية مثلاً لم تلقَ آذاناً صاغية في عصره، وكذلك غيره... وإلى اليوم... والحياة تتسارع بشكل مذهل في عصرنا، والفقيه تفاجئه الأسئلة: ماذا تقول عن تعليم المرأة؟ خروج المرأة إلى العمل؟ عن قيادة المرأة السيارة؟ عن العلاقة بغير المسلمين؟ عن التصوير؟ عن التلفزيون؟ عن السينما؟ عن المواطنة المتساوية؟ عن البرلمانات؟ عن الانتخابات؟ عن الثورات؟ وهو يبدأ بالتحريم عادة ثم الإجازة بشروط ثم ينخرط مع البقية في الجديد.

إن وقع العصر مدوٍّ، وأدوات الفقيه المتاحة له في النظر محدودة، وإعداده لفهم العصر محدود، والإعاقة التي يسببها كل ذلك للفقيه ليست يسيرة... فهل بالإمكان تطوير أصول الفقه... هل بالإمكان تجديد شروط المجتهد في هذا العصر؟

وهذا النوع من الأسئلة لا يبدو غريباً على المتخصصين في مجال الأصول، وخاصة اليوم، ولكنه ولكثير من العاملين في الفضاء الإسلامي يبدو كأنه فضاء نضجَ واحترَق، والحقيقة غير ذلك تماماً وسنحاول في السطور اللاحقة بيان أن أصول الفقه كعلم لم يولد مرة واحدة وإنه تطوّر عبر أجيال وأصيب بالجمود في مراحل وأن محاولات فكّ أسر الجمود عنه جارية إلى اليوم ولننظر إلى هذه الرحلة... ونتعلم منها.

مقدمة

مباحث العلم

وأصول الفقه علم جمع مادته وضمّها إلى بعضها بعضاً الإمام الشافعي رضوان الله عليه في كتابه **الرسالة**، وسار على نهجه من جاء بعده من أهل العلم فنظموا ما تشتّت من كلام الشافعي فحين ننظر إلى مباحث أصول الفقه الكبرى نجدها خمسة؛ ففي القلب يوجد موضوع الحكم الشرعي وما يحيط به من قضايا، ثم دائرة مصادر هذا الحكم الكلية، وهي: القرآن والسُّنَّة والإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح والاستصحاب والعرف وشرع من قبلنا وعمل أهل المدينة، ثمّ دائرة القواعد الأصولية اللغوية، ثم دائرة القواعد الشرعية ثم الكلام عن المجتهد... ومعرفة الأدوات التي صنعها الأصولي للفقيه ودرجة دقتها ويقينيتها مهم لمن يريد أن يعرف التحديات التي تحول بين الفقيه والإجابة عن أسئلة عصره.

فمعظم الأدوات خلافية وقابلة لتفسيرات متعددة بل في وجودها أحياناً نزاع، فبعد الاتفاق على الكتاب والسُّنَّة سنجد أن بقية الأدلة لم تسلم من الخلاف، سواء في وجودها أو مصدريتها أو تفصيلاتها. ولكن العنوان الأكبر للرحلة هو البحث عن آليات منضبطة للاستنباط.

البحث عن آلية منضبطة؟

كان الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته هو مرجع القول؛ فكان الأمر يسيراً وكان عليه الصلاة والسلام يطالبهم بالاجتهاد والنظر في المناطق التي يبعدون بها عنه، وفق ما

فهموه من روح الدين في ما لا نص فيه يعلمونه (حديث إرسال معاذ بن جبل إلى اليمن)... وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، استجدّت أقضية وأصبح الاجتهاد لا محيص منه، وازدات الحاجة مع تقدم الزمن، فلزم إيجاد آلية منضبطة يتم وفقها الاجتهاد، وهذا ما حاوله الشافعي رضوان الله عليه في كتابه **الرسالة** وتبعه الخلق بعدها في مسلكه.

لماذا أصول الفقه؟

«مثار التخبط في الفروع ينتج عن التخبط في الأصول»[1]؛ لأن الفقيه يجد نفسه أمام نص جزئي من كتاب أو سنة أو يجد نفسه عار من النص في مستجدّ ليس له سابقة أو تتعارض النصوص أو ظواهر النصوص أمامه، وما لم يكن له منهج يستند إليه فقد يفتي بالشيء ونقيضه.

ما موقع أصول الفقه؟

هو من علوم الآلة، مثل: اللغة والمنطق والتفسير وعلوم الحديث والفقه.

من أين جاءت مادة أصول الفقه: سبعة مصادر؟

الكتاب ـ السُّنَّة ـ اللغة ـ الفقه ـ فتاوى الصحابة وقضاياهم ـ علم الكلام ـ المنطق الأرسطي (والأصلين الأخيرين يمكن تسميتهما بالعقل)[2].

---

(١) أبو حامد الغزالي، **المنخول**، تحقيق د. محمد هيتو، دار الفكر، ص٣.

(٢) **آثارات تجديدية**، بن بيه، دار التجديد، السعودية، ص٢٩.

مسار التطور في علم الأصول واستمراريته

الرسول (ﷺ)

في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام كان الأمر إليه والأسئلة توجه إليه، وهو يراقب أفعال واجتهادات القوم، فيصوّب ما يحتاج إلى تصويب، ويقر ما استقام من القول والعمل، وكان الناس تبعد بهم الأسفار عنه إما إلى حرب أو إلى ديار أو إلى تجارة، ويجدون حوادث فيجتهدوا فيها وعادة ما تُقدم كتب الأصول بحديث إرسال معاذ إلى اليمن، وسؤال الرسول له: بم تفتي يا معاذ؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد. قال: بسُنَّة رسول الله. قال: فإن لم تجد. قال: اجتهد رأيي. فضرب على صدره مقراً لما قال. وعلى الرغم من أن الحديث ضعيف من ناحية الإسناد، ولكن معناه صحيح، فماذا يمتلك الإنسان إن فقد النص إلا عقله، وما يراه الأصلح والأقرب إلى ما علمه من مقاصد الدين الكلية. ومثله ما جاء في **صحيح مسلم** (١٧٣١)، من وصية الرسول لقادة الجند في ما رواه بريدة بن الحصيب الأسلمي: «. . .وإذا حاصرت أهلَ حصنٍ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نبيِّه، فلا تجعلْ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه، ولكن اجعلْ لهم ذِمَّتَك وذمَّةَ أصحابِك. فإنكم، أن تُخفِروا ذِمَمَكم وذِمَمَ أصحابِكم، أهونُ من أن تُخفِروا ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رسولِه. وإذا حاصرتَ أهلَ حِصنٍ، فأرادوك أن تنزلَهم على حكمِ اللهِ، فلا تنزلْهم على حكمِ اللهِ. ولكن أنزِلْهم على حكمِك. فإنك لا تدري أتصيبُ حكمَ اللهِ فيهم أم لا». وفي هذه المرحلة كان خبر الواحد كافياً لصعوبة الكذب ولإمكانية حل مشكلة السهو والخطأ، فالرسول حاضر للبيان.

عهد أبي بكر وعمر والخلفاء (١١ ـ ٤٠هـ)

الكتاب والسُّنَّة وإجماع من حضر والقياس

مع وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانقطاع الوحي برزت مشكلة الوقائع المستجدة، وستظهر بذور الأدلة الكلية فلم يكن هناك خلاف على حجية القرآن ولا حجية السُّنَّة إن ثبتت، وبرزت الحاجة إلى أدوات جديدة في مواجهة الحوادث المستجدّة، وستولد فكرة القياس؛ بمعنى الحكم على واقعة جديدة بناء على حكم صدر على واقعة قديمة تشترك معها في العلة، ويطبيعة الحال لم تكن الأداة بعد قد تم ضبطها وتحديد مصطلحاتها ومباحثها، كما أن الصحابة استخدموا فكرة الإجماع وهو في الحقيقة إجماع من حضر وليس على شرط الأصوليين اللاحق، وحين نعمق النظر في ما قاموا به سنجدهم قد استخدموا العقل كما يستخدمه سائر العقلاء؛ فالكون والتعليل والقياس والاستشارة لرؤية المصلحة، كلها أمور يقوم بها الإنسان فِطرةً ما رُزِق سلامة العقل.

عهد المذاهب الفقهية ونظرتها للأصول

الأحناف (٨٠ ـ ١٥٦هـ) الراوي فقيه + إدخال الاستحسان

وجد الأحناف أنفسهم في بيئة العراق وكان أبو حنيفة تاجراً في الأسواق، يعرف الناس وأحوالهم، وبرزت مشكلتان: **الأولى**: متعلقة بحديث الآحاد؛ حيث رأى أبو حنيفة أن الحديث حين يُروى إنما يُروى بالمعنى فيدخل في النص ما وعاه الراوي. وما لم يكن الراوي مدركاً للفارق بين الألفاظ، فتغيير

لفظ في الحديث قد يقود إلى استنتاج مغاير له، فاشتُرط في راوي الحديث أن يكون فقيهاً كي تُقبل روايته، إن تضمنت فقهيات، وعلى ذلك لم تقبل روايات الصحابي الجليل أبي هريرة لافتقاده هذا الشرط.

واستخدم أبو حنيفة الاستحسان، وهو معنى اختُلف في تعريفه عند فقهاء المذهب اختلافاً واسعاً، وأقربها عند المتأخرين منهم (دليل يقابل القياس الجلي الذي تسبق إليه الأفهام)، فالواضح أن القياس الجلي أحياناً يذهب خلاف المصلحة، فيستحسن الفقيه خلافه لمعرفته بروح الشريعة، وهكذا سيبدأ ميلاد أداة جديدة لمواجهة حاجة لاحظها الفقيه في تفاعله مع الواقع.

المالكية (٩٣ ـ ١٧٩هـ) عدم مخالفة عمل أهل المدينة + الاستصلاح

وجاء السادة المالكية فوجدوا أن حديث الآحاد الذي توفرت فيه شروط الضرورة من عدالة الرواة لاتصال السند لسائر الأوصاف قد يصادم ما هو مستقر من عمل أهل المدينة فقرر مالك أن عمل أهل المدينة أولى بالاتباع من حديث الآحاد وإن صح.

كما وضع مصدر الاستصلاح؛ وهو ما يسميه بعض الأصوليين بالمصالح المرسلة، وقد ذكره جماعة من أهل الأصول في مباحث الاستدلال، ولهذا سماه بعضهم الاستدلال والجواب، وأطلق إمام الحرمين وابن السمعاني عليه اسم الاستدلال. قال الخوارزمي: والمراد بالمصلحة: المحافظة على

مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق. وقال الغزالي: هي أن يوجد معنى يشعر بالحكم مناسب عقلاً ولا يوجد أصل متفق عليه. وقال ابن برهان: هي ما لا يستند إلى أصل كلي ولا جزئي، وقد اختلفوا في القول بهذا على مذاهب...[٣]؛ يعني: أن الوصف إذا لم يرد الدليل على اعتباره ولا على إلغائه، وهو مع ذلك فيه جلب مصلحة أو دفع مفسدة، فذاك هو المسمى عند أهل الأصول بالمصالح المرسلة أو الاستصلاح.

وقد ذكره صاحب مراقي السعود في ألفيته ممثلاً له، يقول:

والوصف حيث الاعتبار يجهل   فهو الاستصلاح قل والمرسل
نقبله لعمل الصحابة   كالنقط للمصحف والكتابة

ومن هنا ولد أصل خامس كلي وهو الاستصلاح أو المصالح المرسلة ونتج من ملاحظة الفقيه والحاجة.

الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) خالف منهجية مالك وأبي حنيفة وقام بجمع معارف عصره في هذا الجانب وفق رؤيته

الشافعي اتبع منهجاً فقهياً مخالفاً لمدرستي الأحناف والمالكية: «إذا صح الحديث (ومن شروطه عنده الاتصال) فهو مذهبي»، ولا التفات إلى غيره من الأقاويل والعمل، وأبطل الاستحسان، وأنكر العرف، ولم يأخذ بالذرائع، وشدد النكير على القائلين بعمل أهل المدينة، ورد الاستدلال بالحديث المرسل... فالشرع عنده إما نص أو قياس على النص أو ما

---

(٣) إرشاد الفحول، ج١، ص٤٠٣.

في معناه. وحصر كل اجتهاد داخل دائرة القياس بهذا المفهوم. لقد كان الجمع والتصنيف عمل كبير في مسار تطور العلم وسيستأنف من بعده العلماء الرحلة.

الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ)

ومن ملاحظة قصور الأعمال السابقة كانت إضافة الإمام الجويني إليه ـ رحمه الله ـ تتمة لسلسلة بدأت بالشافعي في تعليله للأحكام وكلامه عن القواعد الكلية للشريعة الإسلامية... والترمذي في البحث عن أسرار الشريعة الإسلامية... وأبو بكر القفال الشاشي في **محاسن الشريعة** والباقلاني الذي بدأ بإدخال علم الكلام في الأصول، وتوّج ذلك وضع الجويني فكرة الضروريات والحاجيات والتحسينيات وقسم الضروريات إلى خمسة أقسام: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ)

ثم جاء الغزالي وأحس بالحاجة إلى وضع أداة ضبط... فأضاف المنطق إلى أصول الفقه وعدّه أساس العلوم ونظم عمل أستاذه الجويني عليه رحمة الله في تقسيمه للضروري والحاجي والتحسيني وتقسيمه للضروري بأنه: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

العز بن عبد السلام (٥٧٧ ـ ٦٦٠هـ)

وجعل المصلحة هي أساس التشريع في كتابه **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**.

الشاطبي (ت٧٩٠هـ)

لاحظ الشاطبي أن عمل الفقيه ما زال مجزّءاً وأن العمل يحتاج إلى مزيد من الضبط عبر صناعة نظرية كاملة عن مقاصد الشريعة، وهو، بتأسيسه المقاصد وتميزه عن كتّاب أصول الفقه، قام بعمل سيشكل أرضية كبرى بل لِنقُل عملاقة محتملة؛ فميزة العمل الذي قام به ظهرت ظهوراً عجيباً... لما أشكلت على العالم الإسلامي - عند نهوضة من كبوته - أوجه الجمع بين أحكام الدين ومستجدّات الحياة العصرية، فكان كتاب **الموافقات** للشاطبي «هو المفزع وإليه المرجع»[٤]، وهذا ما دعا الإمام محمد عبده إلى الاهتمام بهذا الكتاب ودعوة الطلاب إلى مدارسته قبل أن ينتشر الوعي بأهمية هذا المؤلف.

يقول ابن عاشور: «فنحن إذا أردنا أن ندون أصولاً قطعية للتفقه في الدين حق علينا أن نعمد إلى مسائل أصول الفقه المتعارفة وأن نعيد إذابتها في بوتقة التدوين ونعيرها بمعيار النظر والنقد، فننفي عنها الأجزاء الغريبة التي علقت بها ونضع فيها أشرف معادن مدارك الفقه والنظر، ثم نعيد صوغ ذلك العلم ونسميه علم مقاصد الشريعة»[٥].

المعاصرون ينتبهون إلى أهمية عمل الشاطبي في المقاصد:

عبد الله دراز (١٨٧٤م/ ١٢٩٠هـ - ١٩٣٢م/ ١٣٥١هـ)

حقق **الموافقات** للشاطبي بناء على وصية الإمام محمد عبده له.

---

(٤) ابن عاشور محمد الفاضل، **أعلام الفكر الإسلامي**.

(٥) ابن عاشور، **المقاصد**، المقدمة.

ابن عاشور (١٨٧٩ ـ ١٩٧٢م)

لقد كان الكلام في مقاصد الشريعة قبل ابن عاشور ينصرف إما إلى المقاصد العامة، وهي التي خصص لها القسم الثاني، وسماها «مقاصد التشريع العامة»، وإما إلى مقاصد الأحكام التفصيلية؛ أي: المفاصل الجزئية، فلما جاء ابن عاشور كشف عن مستوى آخر من المقاصد، يتوسط بين العامة والجزئية، وهو ما يتعلق بمجال تشريعي معين، كالمجالات التي ذكرها.

مقاصد أحكام العائلة ـ مقاصد التصرفات المالية ـ مقاصد الشريعة في المعاملات المتعلقة بالأبدان ـ مقاصد أحكام القضاء ـ المقصد من العقوبات.

يوسف حامد العالم

وضع كتاب المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

الترابي

يطرح فكرة القياس المقاصدي.

أحمد بن محمد بن علي الوزير

يقدم محاولة لبديل كامل لأصول الفقه (**المصفى في أصول الفقه**).

د. أحمد الريسوني

يعيد تبسيط نظرية المقاصد في كتبه ويقدم إضافاته؛ **نظرية المقاصد عند الشاطبي والكليات الأساسية للشريعة الإسلامية ومقاصد المقاصد**.

العلامة عبد الله بن بيه

وأخيراً، قدم العلامة عبد الله بن بيه كتابه الرائع **إثارات تجديدية في حقل الأصول**؛ ليفتح الباب واسعاً لتطوير كل جوانب أصول الفقه (مادته وصورته وغايته وفاعله)؛ فأكّد أن المادة هي ما استمد منها علم أصول الفقه، وجعل الصورة هي الإجابة عن الأسئلة المفتاحية (ماذا؟ ولماذا؟ وكيف؟)، فماذا تتعلق بدلالات الألفاظ... ولماذا عن منظومة التعليل... وكيف عن مسالك التنزيل على الواقع... والفاعل هو المجدّد أو المجتهد أما الغاية فهي الاستنباط والانضباط.

ويرى العلامة بن بية أن يضاف إلى علم الأصول:

١ ـ مقدمة في اللغة لتضمن فهم الدلالات اللفظية.

٢ ـ مبحث عن مكانة العقل.

٣ ـ إضافة المعارف البشرية في الألسنيات إلى معرفة العلاقة بين اللفظ والمعنى.

٤ ـ إضافة مقدمة عن القياس الشمولي والاستقرائي والجزئي لتأصيل التعليل.

٥ ـ الربط بين أجزاء الرأي والاجتهاد عن طريق مقدمة تصل بين القياس المحكوم بالوصف الظاهر المنضبط وبين الرأي المصلحي الذي يضمن المصالح وسد الذرائع ومآلات الأفعال.

٦ ـ الاستعانة بعلم الاجتماع وعلم النفس في تحقيق المناط مع منابع الخبرة والتجارب والحكم.

٧ ـ وضع منهج للعلاقة بين النقل والعقل والنص والاجتهاد.

ملاحظة

نحن نرى في كل ذلك أن أصول الفقه ونموه هو صيرورة ما زالت تتفاعل، وأن الفقيه المعاصر يواجه صعوبات جمة نتيجة نقص الأدوات المصقولة المتاحة له... والحالة الإسلامية التي تحاول أن تعبُر بالدين إلى عصر جديد إما أن تنتظر نضج الجهود لتوفير أداة أصولية صلبة قادرة على مواجهة ضخامة التحولات في هذا العصر، أو أن تعتمد على نوعية من الفقهاء الذين نضجت ملكتهم الفقهية الذاتية في إدراك العصر وإدراك فقه المآلات، ولو كانوا لا يمثلون التيار العام أو أن تبقى أسيرة فقه الالتحاق.

٣ ـ الجبر وظلاله
(مشكلة الوعي الجمعي)

لقد رأينا الاحتجاج بالقدر على مظالم الدنيا في العصر الأموي ورأينا المعتزلة وهم يحاولون مواجهة ذلك النوع من الحجاج... وموضوع القدر والاحتجاج به منتشر بأكثر مما نتصور، وهو يأخذ طريقه إلى العقول عبر الأمثال الشعبية والشعر والموعظة والرقائق ويتجذر في أشكال المواساة، وسنراه بعد ذلك في كتابات الغزالي، ولكن لنقف معه بشكل علمي، وفي الأطروحة الأكثر عمقاً في الاعتقاد، ولنبدأ من أول القصة!

نهاية سعيدة

جاء في فتح الباري:

٥٣٩٧ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله ابن عباس أن عمر بن الخطاب (ﷺ) خرج إلى الشأم حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله (ﷺ) ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال، ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن

عندي في هذا علماً سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**». قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف.

ها نحن مع نوعين من الفهم... نوع يرى أن الأحداث ستحدث بغض النظر عن قرارات الإنسان وأنه لا تنفعه حيطة ولا حذر، ونوع يرى أن للعقل دوراً وأن الإنسان لا يعلم قدر الله، ولكنه يعلم صواب القرار وخطأه الذي يتخذه، وأن القرار الذي يتخذه لا يكون خارج قدر الله، بل هو من القَدْر الذي أعطاه الله للإنسان من جملة الأقدار المتدخلة في صناعة الفعل...

لقد انتصر هنا تصور عمر ومن وافقه على تصور أبي عبيدة ومن وافقه، ونجا القوم.

لم يتم بعدها بحث فلسفي تصوّري، فلم تكن الحياة بتعقيد اليوم ولم يتم تحويل القصة إلى نموذج معرفي يجعل الإنسان ودائرة احتجاجه ومحاسبته مرتبطة بقراره، ولا حتى إلى نموذج عكسي، يقول أقدم بأي طريقة فلا شيء سيتغير سواء كان قرارك صواباً أم خطأ.

نهاية غير سعيدة

فكرة الإنسان والعمل والمسؤولية وعلاقة السبب بالنتيجة على الرغم من عدم شغبها على عقل بقية الأمم، إلا أنه عندنا اتخذت مساراً عجيباً، ولننظر إلى تفسير الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ (ت.٣٦٠هـ) لنعرف جزءاً مما حدث:

قال الآجري ـ رحمه الله ـ: «مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله (ﷻ) خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهل، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

ثم خلق آدم (ﷺ)، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعلهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وخلق إبليس، وأمره بالسجود لآدم (ﷺ)، وقد علم أنه لا يسجد للمقدور، الذي قد جرى عليه من الشقوة التي سبقت في العلم من الله (ﷻ)، لا معارض لله الكريم في حكمه، يفعل في خلقه ما يريد، عدلاً من ربنا قضاؤه وقدره.

وخلق آدم وحواء (ﷺ)، للأرض خلقهما، أسكنهما الجنة، وأمرهما أن يأكلا منها رغداً ما شاءا، ونهاهما عن شجرة واحدة أن لا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة. فهو تبارك وتعالى في الظاهر ينهاهما، وفي الباطن من علمه: قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لم يكن لهما بُدّ من أكلهما، سبباً للمعصية، وسبباً لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقاً، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه، إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علماً قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق، كما شاء لما شاء، فجعلهم شقياً وسعيداً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم،

وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى في ما كُتِبَ له وعليه.

ثم بعث رسله، وأنزل عليهم وحيه، وأمرهم بالبلاغ لخلقه، فبلغوا رسالات ربهم، ونصحوا قومهم، فمن جرى في مقدور الله (ﷻ) أن يؤمن آمن، ومن جرى في مقدوره أن يكفر كفر، قال الله (ﷻ): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢] **أحب من أراد من عباده، فشرح صدره للإيمان والإسلام، ومقت آخرين، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلن يهتدوا أبداً، يضل من يشاء ويهدي من يشاء**: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الخلق كلهم له، يفعل في خلقه ما يريد، غير ظالم لهم، جل ذكره عن أن ينسب ربنا إلى الظلم، إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا (ﷻ) فله ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، وله الدنيا والآخرة، جل ذكره، وتقدست أسماؤه، أحب الطاعة من عباده، وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصي، وأراد كونها من غير محبته منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله (ﷻ) أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجري في ملكه ما لم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاء وقدراً.

قد جرى القلم بأمره (ﷻ) في اللوح المحفوظ بما يكون، من برّ أو فجور، **يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف**

العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، لولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: «هذا مذهبنا في القدر».

بموجب هذا الفهم... لا شيء يتغير سواء فعل الإنسان أو لم يفعل، هو فقط لأنه لا يدري من أي الفريقين هو ابتداء، يقوم باتخاذ قرارات وربما ليس هو من يقوم باتخاذ القرارت لأن القرار فعل وهو لم يفعل بل أضيف إليه الفعل... كان من السهل على كل فرد ظالم أو عاصٍ أن يدّعي أنه مظلوم فقراره ما كان له أن يحدث فرقاً فهو وطبيعته وقراراته مصمم منذ البدء للوصول إلى النتيجة الحتمية وهي امتلاء جهنم بالعصاة!!

ولكن ما الذي دعا عالماً كبيراً مثل الآجري ـ رحمه الله ـ إلى الكتابة بهذا الشكل والابتعاد عن الحل العمري القصير، ماذا حدث في تلك اللحظة التاريخية ودعا إلى الكتابات المتنوعه في هذا الموضوع الشائك. والآجري ـ رحمه الله ـ من علماء القرن الرابع الهجري ولمعرفة تطور الأحداث نحتاج إلى أن نعود إلى بداية تغير النظام السياسي ونمط الحياة من النمط المدني المحافظ البسيط إلى نمط الشام وملك بني أمية... لقد تغيرت الحياة تغيراً كبيراً بعد تولي معاوية بن أبي سفيان الحكم... فهنا أسرة مالكة تمتلك القوة... وأمراء لا سلطة لأحد

عليهم... وانتشار مظاهر الترف... وربما مجاهرة بعضهم بالمعاصي وقد تكلمنا عن ذلك سابقاً مستشهدين بجملة القضايا التي برزت على الساحة عام ٨٠هـ، بفرقة كبيرة هي المعتزلة وسبب قيامها ورأينا أثر ذلك في المشهد الفقهي وكيف انتهت حياة أبي حنيفة وضرب مالك في السوق وطلب الشافعي لضرب عنقه في بغداد وجلد الإمام أحمد بعدها... عصر عاصف لن نعيد الحديث عنه، فقد تحدثنا عنه سابقاً وسنجمل القول هنا.

يظهر بوضوح بقراءة تاريخ تلك الحقبة شيوع ظاهرة الاحتجاج بالقدر من قِبل أهل المعاصي، فلسان حالهم كأنه يقول: «ما ذنبنا فنحن ضحية لذلك السيناريو الذي بدأ به الخلق؛ فمنذ لحظة صناعتنا، كل شيء مرسوم وكل شيء مصمم وسيتم بالطريقة ذاتها».

لم يكن قولهم خالياً من الدليل، ولننظر إلى بعض الآيات والأحاديث في هذا السياق، ونقارن بين الآيات والأحاديث التي تدل على الجبر والآيات التي تدل على الاختيار:

الجبريات	الإراديات
﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]	﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]
﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]	﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]
﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]	﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]	﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]
﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] **قيل في اللوح.**	﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]
	﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]	﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]

ها نحن أمام منظومتين برزت الحاجة إلى موقف منهما بعد انتشار فكرة الجبر والاحتجاج بالقدر... ومن الواضح أن هناك ثلاثة احتمالات للموقف؛ فإما تغليب فكرة الجبر وإما تغليب فكرة الاختيار وإما التوفيق بينهما بعمل رابط عقلي ما، ولننظر إلى تلك التصوّرات الرابطة.

رأي المعتزلة

الإنسان مخير وأكبر حججهم عقلي صرف، وهو أنه لا معنى للثواب والعقاب لو كان الإنسان مسيراً لا حيلة له... وأن الله عادل لا يظلم أحداً كما أخبرنا عن نفسه وكما تحكم

بذلك العقول السوية... فعقاب من هو مكره لا حيلة له ظلم... ومن هنا هاجمهم خصومهم وأطلقوا عليهم القدرية (نفاة القدر) وعلى الرغم من أن الاسم مربك ولكن هكذا تم استخدامه فالمقصود به أنهم ينفون القدر باعتبار أنهم غلّبوا جانب الاختيار على جانب الجبر.

رأي الشاعرة

والأشاعرة في الموقف من القدر ليسوا سواء ولكن سنختار كتاب **الإبانة**، وبشرح الشريف الجرجاني في كتاب **المواقف** كنموذج، نظرية الكسب عند الأشاعرة: «الله خالق الأفعال والإنسان كاسب».

كلام الإمام الأشعري في الإبانة

قال في الباب الثاني: «إنَّه لا خالق إلَّا الله وإنَّ أعمال العبد مخلوقة لله مقدرة كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات: ٩٦]. وإنَّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

قال شارح **المواقف**، الشريف الجرجاني، ج٨ ص١٤٦:

«إنَّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها، والله سبحانه أجرى عادته بأن يوجِد في العبد قدرة واختياراً. فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما، فيكون فعل العبد مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد والمراد بكسبه إيَّاه مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى

كونه محلاً له. وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري».

فالعمل هنا مكسوب للعبد؛ أي: هو مسؤول عنه، لمجرد توجُّه إرادته إليه وإن له قدرة على إحداثه، ولكن هذه القدرة غير فاعلة... فبوجود هذين الشرطين: إرادة الفعل ووجود القدرة المعطلة، يتمّ الفعل؛ أي يخلقه الله ويعاقب عليه الإنسان... وحيرت النظرية العلماء حتى اشتهر القول: «أخفى من كسب الأشعري».

وقد رتّب عليها الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه واسع الانتشار **إحياء علوم الدين** عدم لزوم العمل لكسب الرزق وعدم الحاجة إلى التداوي وعدم الحاجة إلى العلم الكسبي... إذ الله يفعل بالسبب ومن دونه... **(انظر مقولاته في جزء الكلام عن التزكية في هذا الكتاب).**

محاولات الترميم

اجتهد بعض أئمة المذهب الأشعري في محاولة زحزحة المشكلة مثل:

الأول: إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيْني (ت.٤٧٨هـ)، فقد صرّح بتأثير قدرة العباد في أفعالهم، وأنَّ قدرتهم تنتهي إلى قدرة الله سبحانه، وأنَّ عالم الكون مجموعة من الأسباب والمسببات، وكل سبب يستمد من سببه المقدم عليه، وفي الوقت نفسه يستمد ذاك السبب من آخر، إلى أن يصل إلى الله سبحانه، «وهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغني على الإطلاق».

الثاني: الشيخ الشعراني (ت.٩٧٣هـ) وهو من أقطاب الحديث والكلام في القرن العاشر فقد وافق إمام الحرمين في هذا المجال، وقال من زعم أنه لا عمل للعبد فقد عاند، فإن القدرة الحادثة إذا لم يكن لها أثر فوجودها وعدمها سواء.

ومن زعم أنه مستبد بالعمل فقد أشرك، فلا بد من أنه مضطر على الاختيار.

الثالث: الشيخ محمد عبده (ت.١٣٢٣هـ)، فقد خالف الرأي العام عند الأشاعرة، وصرّح بتأثير قدرة العبد في فعله، ولم يبالِ في ذلك باعتراض رجال الأزهر الذين كانوا يُكَفِّرون من قال بالعلّة الطبيعية، أو بمطلق العلّة غيره سبحانه ويرددون في ألسنتهم قول القائل:

ومن يَقُلْ بالطَّبْعِ أو بالعِلَّة   فذاك كُفْرٌ عند أهل المِلّة

وكان المذهب الأشعري هو السائد في العالم الإسلامي عبر العصور، وخلاصته أن الإنسان ليس بفاعل على الحقيقة وهو ظرف للفعل... لكن ما هو الأثر العملي لمثل هذا الكلام كله في عقلية الجمهور، وكيف وصل إلى الجمهور وهو كلام مركب خاص بطلبة العلم..؟ هذا ما سنراه في الجزء المتعلق بماذا حدث في عالم التزكية والوعظ! وهذا ما سنتركه الآن ونعود إلى الإمام الآجري ومن نهج طريقه ـ عليه رحمة الله ـ ففي خضمّ ذلك الصراع المرير بين الفرق الإسلامية من معتزلة وأشاعرة وماتريدية كان لا بد من أن تعبّر مدرسة الأثر عن نفسها رافضة التدخل العقلي الذي مارسه المعتزلة ومن بعدهم الأشاعرة والماتريدية ومصرة على اتّباع النص كما هو... وهذه الكتب

كثيرة موسومة بعناوين تبدأ بعقيدة فلان أو عقيدة علّان فقط ليبين افتراقه عن البقية في النظر إلى الموضوع.

لكن ما الذي يعنينا من كل ذلك في عصرنا؟ وهل تركت فكرة الاحتجاج بالقدر، لتبرير سوء العمل والتنصل من المسؤولية، ضلالها على العقل المسلم؟ وهل قلّل ذلك من فاعليته في النظر إلى الأسباب... إننا حين ننظر إلى الحياة من حولنا، ونرى درجة الإتقان والإحسان التي تتمتع بها أمم الأرض، وقدرتها على البحث والعلم والكشف، وقدرتها على التفكير والتخطيط والمسؤولية عن الأعمال، نستطيع أن نطرح السؤال المرة بعد المرة ونكتشف جزءاً من المشهد وهو يتكوّن عبر التاريخ.

٤ ـ التزكية وإشكالياتها (تشوّه العلاقة بالدنيا)

ماذا يحدث لمجتمعات تنتشر فيها الأفكار القاتلة؟

لقد كان النص القرآني باستمرار يشير في اتجاهين: اتجاه إلى السماء واتجاه إلى بذل الجهد في الأرض: ﴿ءَامَنُوا﴾/ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾/ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، شقان تسندهما قصة الإيمان في القرآن فالأنبياء والصالحون يدعون إلى الله، ويعالجون قضايا الطغيان، والتطفيف في الكيل والميزان، وصناعة السابغات، وصناعة السدود، والزراعة، والاقتصاد

والملك... فهم ليسوا عبّاداً في صوامعهم، ولكنّهم قوّة فعل في صناعة الحياة، هم ترجمة عملية لمهمة الإنسان في شق منع السلب وبناء الإيجاب، فالسلب الذي عبّرت عنه الملائكة بمخاوفها: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وفي الإيجاب تأتي قضية: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، فالدين ـ كما يرسمه القرآن ـ هو انطلاقة للعقل واتصال بالخالق وانفتاح على الدنيا: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢] تلك كيمياء الإسلام وتوازناته.

وقد شكلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية صيدلية كبيرة لعلاج أمراض كثيرة، وأهمها مرضان كبيران: **الأول**؛ هو الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة، **والآخر**؛ الإقبال على الآخرة وإهمال واجبات الدنيا، وبما أن الصنف الأول هو الأعم، فلم يكن غريباً أن توجد ترسانة نصية كبيرة مصمّمة لمواجهة الموقف.

ولو دققنا النظر لمعرفة هذه الفلسفة سنجد المصطفى (ﷺ) كما جاء في البخاري: «حدثنا يحيى بن قزعة حدثنا إبراهيم عن الزهري عن عامر بن سعد بن مالك عن أبيه قال: عادني النبي (ﷺ) عام حجة الوداع من مرض أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قال فأتصدق بشطره؟ قال: الثلث يا سعد والثلث كثير، إنك أن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، ولست بنافق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا آجرك الله بها...». ها هنا

الرسول ينصح ثَرياً ويطلب منه أن يترك أبناءه أثرياء، ذلك موقف. وموقف آخر يقول فيه القرآن: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ولم يفهم الصحابة أن ذلك مشروع للفقر أو ترك العمل بل كان جلّ كبار الصحابة، مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم تجاراً معروفين، ولم يتركوا تجارتهم ولا صناعتهم بحجة العبادة فماذا حدث بعدها؟

لقد جاء العصر الأموي، فنشأ مجتمع فَقَدَ خصائص البساطة الأولى كما رأينا مما استثار البيئة المتدينة التي لم تكن قادرة على المواجهة بالقوة فتقدم المعتزلة لتفكيك ذرائع ذلك النفر من البشر الذي تمترس بفهم معين للنصوص؛ لتبرير ابتعاده عن جادة الصواب، ولكن كان لا بد من جهد إضافي وستمثله شخصية عظيمة وهي الحسن البصري (٢١هـ/٦٤٢م - ١١٠هـ/٧٢٨م)، لقد رأى الحسن البصري التغيرات، فقد ولد لسنتين بقين من خلافة عمر بن الخطاب في المدينة وأجوائها، وهذا يعني أنه مع ظهور الحكم الأموي كان في العشرينيات من عمره، فمعاوية تولى الحكم عام ٤٠هـ، لقد كان الحل الأمثل هو تشجيع الناس على الإعراض عن الدنيا، وكان هذا يعني بالضرورة التزهيد في الدنيا وذمّها وحشد كل ترسانة الأحاديث المتوافرة، وزاد الطين بِلّة ما حدث بعد الحسن البصري؛ حيث جُوِّز استخدام الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، وبسبب الطبيعة الوعظية لذلك الفعل أصبح سوقاً رائجة، وأصبح حضور أفكار

الانسحاب قوياً في العقول، فلم يكن غريباً أن تتم بعدها الحلقة الثالثة، فالتمهيدات النفسية كبيرة والظاهر من صيرورة الحدث أن طريق الانسحاب بآلية الوعظ لم تكن تأتي بثمارها المرتقبة فظهرت الطرق الصوفية.

كان ظهور التصوف مع القرن الرابع مرحلة طبيعية، فهنا لم يعد مجرد حضور مجلس الوعظ هو الأساس للخروج بتلك النفسية المعرضة عن الدنيا والمتسربلة برداء الفقر، بل أصبح هناك طريق محدّدة ببرنامج على يد شيخ يعطيه المريد كل شيء، وهو بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله. قال الغزالي: «فمعتصم المريد شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد حيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخلفه في ورده ولا صدره». قال الجيلاني: «من لا يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح أبداً». كانت مهمة خلق تلك النفسية المستسلمة للأقدار والمستسلمة لإرادة بشر آخر فناً صيغت له العبارات والأشعار. هكذا ولد عالم جديد لم يعرفه الصدر الأول لا في لغته ولا في طريقة إنتاجه.

كنا قد تركنا وراءنا حلقة مفقودة وسؤالاً حائراً عند حديثنا عن الجبر ومتعلّقاته، وتساءلنا كيف انتقلت قضايا الجبر وقضايا الارتباك في علاقة العبد بالعمل، وهي قضايا خاصة بالحلقات العلمية لفضاء العوام، وانتشرت كالنار في الهشيم حتى أصبحت مسلّمات في العقل المسلم يعود إليها من دون أن يشعر، ويحسب أنه بعيد عنها وهي منه قريبة، ولذلك سنعود إلى الإمام الغزالي ـ عليه رحمة الله ـ (٤٥٠هـ/١٠٥٨م ـ ٥٠٥هـ/١١١١م)، فقد تجلّى في كتابه الشهير **إحياء علوم الدين** كل تلك الآثار

التي خلّفتها الأحداث وصراع الأفكار، ولننظر إلى أهم القضايا التي تؤثر في نهضة أي أمة كالعلم والعمل والصحة وتفسير طبيعة الأشياء وعلاقاتها السببية.

بشر فوق البشر أو غيبوبة العقل المسلم

يروي لنا الغزالي في **الإحياء** عن أبي يزيد البسطامي قصصاً، لم تكن فريدة في تلك الأجواء، فقصص الخوارق ستصبح جزءاً من العقل التديني، وسيتم تعويد العقل على قبول أي شيء تحت بند الكرامات:

«وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر (عليه السلام)، فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه، وحكى عن الخضر (عليه السلام) أنه قال: ما حدثت نفسي يوماً قط أنه لم يبق وليّ لله تعالى إلا عرفته، إلا ورأيت في ذلك اليوم ولياً لم أعرفه. وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال: ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك، قيل: فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى، فقال: وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه، قيل: فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال: نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة، ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك».

بل أصبحت هناك علاقة غريبة بين الخالق والمخلوق، وعلى رواية الغزالي عن أبي يزيد البسطامي:

ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على

صدور قدميه، رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره شاخصاً بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطاله، ثم قعد فقال: اللَّهُمَّ إن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فَرَضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عدّ نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى، قلت: نعم يا سيدي، فقال: منذ متى أنت هاهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، أوقفني بين يديه، فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه، فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي، صدقاً لأفعلنّ بك ولأفعلنّ، فذكر أشياء. قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه، فقلت: يا سيدي لم لا؟ سألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت، قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت ويلك غرت عليه مني، حتى لا أحب أن يعرفه سواه...

العلاقة بالعلم

هذه الحالة الروحية ستصل إلى عمق الحالة الإسلامية لتضرب قمة عالية من العلم، وهو الغزالي صاحب واحد من أعظم كتب أصول الفقه أو المنهج العقلي للمسلمين، وهو كتاب **المستصفى**

في علم الأصول إلى جانب العشرات من الكتب الأخرى، ولننظر إليه وهو يشرح لنا بصيغة مشوّقة الطريق الأمثل للتعلم:

«فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له».

هكذا لم يعد طريق التعلم الأمثل هو الكتاب بل الممارسة الروحية التي ستورث نوعاً من العلم وهو المطلوب لا غير.

العلاقة بالعمل

فإن قيل: هل يلزم العبد طلب الرزق بحال، فاعلم أن الرزق المضمون، هو الغذاء والقوام، فلا يمكن طلبه؛ إذ هو

شيء من فعل الله بالعبد كالحياة والموت، لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه.

وأما المقسوم من الأسباب، فلا يلزم العبد طلبه؛ إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك، إنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمان الله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، المراد به العلم والثواب وقيل: بل هو رخصة؛ إذ هو أمر وارد بعد الحظر، فيكون بمعنى الإباحة، لا بمعنى الإيجاب والإلزام.

فإن قيل: لكن هذا الرزق المضمون له أسباب، هل يلزم منا طلب الأسباب؟ قيل: لا يلزم منك طلب ذلك؛ إذ لا حاجة بالعبد إليه؛ إذ الله سبحانه يفعل بالسبب، وبغير السبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب؟ ثم إن الله ضمن ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه؛ إذ لا يعرف أي سبب منها رزقه يتناوله، لا عرف الذي صير سبب غذائه وتربيته لا غير، فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه، من أين حصل له؟ فلا يصح تكليفه، فتأمل راشداً فإنه بيّن، ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والأولياء المتوكلين لم يطلبوا الرزق في الأكثر والأعم، وتجردوا للعبادة، وبإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى، ولا عاصين له في ذلك، فليس لك أن تطلب الرزق وأسبابه بأمر لازم للعبد...

العلاقة بالتداوي والعلاج

أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر، فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره... وكان سهل يقول: ترك التداوي، وإن ضعف عن الطاعات وقصّر عن الفرائض، أفضل من التداوي لأجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة، فلم يكن يتداوى منها وكان يداوي الناس منها، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات، يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضى بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائماً، وسئل عن شرب الدواء، فقال: كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف، ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل؛ لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء، ولو كان هو الماء البارد يسأل عنه لِمَ أخذه، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه.

كل شيء لم يعد في مكانه لا العلم ولا العمل ولا الصحة ولا علاقة الإنسان بالعمل ولا علاقة السبب بالنتيجة وذلك سيترك آثاره في العقل المسلم.

٥ ـ التفسير
(تقزّم المفاهيم)

القيم كالعلم والرحمة والحرية والعدالة والكرامة الإنسانية والنظام وغيرها، مستقلات عقلية ومجرد تردادها لا يعني شيئاً

أكثر من العلم بوجودها، ولكنها تعبر إلى الواقع من خلال محطات ذكرناها سابقاً.

وبالتالي سنحاول أن نتعرف إلى السقف السائد للقيمة في التراث المتداول، والأكثر نفوذاً في البيئة، من خلال كتاب التفسير وهو القدر الذي وصل إلى عقل الفرد من محتوى القيمة ومضمونها.

ولننظر إلى المفاهيم الكبرى، لنرى الفارق بين قامتها القرآنية وقامتها التي رُسمت في عقولنا لنتبين تلك الفجوة، حتى على المستوى النظري كيف أثّرت في المشهد.

كتاب التفسير، بين أيدينا جهد ضخم عملت عليه عقول وهمم علمية كبيرة لا شك، فمن عرف جهد شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)، ومن بعده يقف إكباراً وإجلالاً لذلك العمل الرائع، ولكن كل عمل هو ابن عصره، قوة وضعفاً، وابن وعي من أنتجه وتصوّره عن الحياة، وبالتالي لا يمكن محاسبة منتج عصر ما بوعي عصر آخر وثقافته، كل هذا صحيح.

ولكن بيت القصيد هنا ليس ما قدّمه الطبري وأهل العلم في التفسير ولا لأهميته المعرفية ولا لقامتهم العلمية، ولكن أثر ما قدموه في مجمل الصورة التي نحملها عن الإسلام اليوم، وخاصة أنها تقدم باعتبارها تفسيراً للقرآن وليست فهماً تاريخياً للقرآن، ومن هنا هي تؤثر بشكل كبير في العقل الجمعي وتشكل قامة المفاهيم القرآنية. وسنحاول أن نضرب بعض الأمثلة لأهم تلك القيم، وسنخصّ منها ما يؤثر في النهضات وصناعة الحضارة مثل:

- فكرة العلم.
- فكرة العمل الصالح.
- فكرة العدل.
- فكرة الكرامة الإنسانية الوجودية.
- فكرة التعارف الإنساني الكوني.

أولاً: فكرة العلم

ولنبدأ من السطح قبل الغوص في الأعماق. ثلاث لقطات: شاب يسأل أحد كبار العلماء في موقع مشهور: «أنا طالب في الشعبة العلمية، وتدينت، وأردت التغيير والانتقال للدراسة الشرعية، ووالدي يمانع، فهل أطيعه أم أعصيه!؟». رجل ثري يسأل: «طالب علم محتاج، فهل أنفق عليه مع أنه يدرس غير العلم الشرعي!». شاب متحمس يرسل إلى أحد المواقع الشرعية ويريد منهم أن يسندوه في موقفه من خطيب ساق أحاديث وآيات الحثّ على العلم مقترنة بأمثلة من العلوم الدنيوية، بينما في رأيه أن كل ما سيق متعلق بالعلوم الشرعية، والغريب أن الموقع أجابه لما طلب!.

سقف القرآن

لقد سبق ظهور الإسلام شرعة عيسى (عليه السلام) أو الإسلام العيسوي، لو صحت التسمية، وانتقل الدين بقوة الدفع الدعوية من فلسطين إلى أوروبا وعاصمتها الكبرى روما، في صراع عنيف بين الدعاة والوثنية الرومانية بثقافتها اليونانية، وطال هذا

الصراع وعلى الرغم من شراسة المواجهة إلا أن المسيحية شقّت طريقها في روما وبين القبائل الوثنية من البرابرة الأوروبيين حينها، وانتهى الفصل الأول باعتناق الإمبراطور الروماني الديانة المسيحية والاعتراف بها عام ٣١٣م. وهكذا جاورت المسيحية الوثنية الرومانية وبدأ الصراع بين الشأن الديني والشأن الدنيوي، فالفضاء الديني لم يقبل باستقلال الشأن الدنيوي والشأن الدنيوي كان يطمع في توظيف الديني، وهو صراع تقليدي نتيجة تجاور مشروعين مختلفَي المصدر وشروط العمل.

استمر الصراع والتدافع للقرن اللاحق، حين سقطت روما على يد الجرمان البرابرة الأوروبيين عام ٤٧٦م، وأتيحت الفرصة للكنيسة لتفرض نمط تفكيرها على المجتمع، بعد أن وجدت قوماً لا يقرؤون ولا يكتبون فصادرت العقل وقد تبين ذلك في مقولات، مثل: «اغمض عينيك واتّبعني»، «لا علم إلا في الكتاب المقدس»، وصادرت روح الإنسان فهو لا يستطيع أن يتصل بخالقه إلا عبر وسيط كنسي حتى لطلب المغفرة، وصادرت جسده فهو لا يستطيع أن يتطهر إلا بتعذيب الجسد وحرمانه من الطيبات.

انظر استمع تفكر تدبر

وجاء الإسلام ليقرع من لا يتفكر ولا ينظر ولا يتدبر ولا يستمع إلى القول ويقاربه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وعاب

على قوم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، ومدح قوماً: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، ها هنا دين يطالب بتشغيل الحواس وعدم الخوف من الاستماع ويطالب بالفهم ويطالب بمعرفة عواقب الأمور مآلاتها.

أنت مسؤول عن اختياراتك

جاء الإسلام ليجعل مسؤولية الإنسان الفردية عن قراراته وعن عمله هي أساس الحياة والنجاة: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

إقرأ وأخواتها

على أرضية استخدام الحواس والعقل والمسؤولية الفردية جاءت حزمة العلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، الإنسان والقلم والبحث عن المعرفة وكشف المجهول... تلك عدة الإنسان للتقدم والنهوض.

أسقط سلطة القديم والقائم

ومن أجل أن يتقدم مشروع كشف المجهول بالعلم، كان لا بد من إسقاط مقولات الأقدمين التي لا تقوم عليها حجة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وسلطة القديم يحرسها في الواقع ما يمكن أن نسميه

سلطة القائم وهي المؤسسات والشخوص التي لا تريد جديداً؛ لأن مصالحها وعواطفها ارتبطت بالقديم، وهي تستميت في الدفاع عنه فقال القرآن عمن تبعهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

إحلال سلطة الدليل والبرهان

لقد عرض القرآن حججه على صدق ما جاء به على عقول القوم، وهم أميون مشركون واعتمد على فطرتهم العقليه ومنطقهم الأساس من دون أن يشترط مستوى تعليمياً محدداً للمُناظِر، فقال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]. . . جاء عصر المطالبة بالدليل والبرهان، فلم يعد القديم صالحاً للاستدلال لمجرد قِدمه ولا لقوة المؤسسة التي تدّعيه.

مصادر التعلم

آيات القرآن مصدر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، تاريخ البشرية وتجاربها مصدر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، الكون المحيط والكائنات: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۞ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١]، والإنسان في ذاته وخلقه مصدر: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، هكذا أصبح كل الخلق مجال دراسة وتعلم.

فضاء العلم الكوني ومن العلماء

حين علّم الخالق آدم، بعد سؤال الملائكة عن هذا المخلوق الجديد، دار الحوار حول علم آدم بعد أن منحه الله قدرة التعلم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ربما ملكة المنطق والاكتشاف. وهذا يوسف يصف معرفته بالاقتصاد: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وهذا طالوت يؤهل للقيادة بالعلم في العسكرية: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وهذا شخص مطلوب منه نقل عرش بلقيس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠]، ربما فيزياء الكم. وهذا داوود يصفه ربه بالعلم: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، في الصناعات العسكرية، فالعلماء في القرآن موجودون في كل فن وهم يخدمون الدين وأهدافه في الكون بهذه العلوم... هذا ما نعلمه من القرآن مباشرة... فهل بقيت الصورة ذاتها عندنا، أم عدت عليها العوادي وتقزّم المفهوم؟

إن الفضاء التداولي لتفسير النص القرآني الذي نستقي منه تفسير القرآن هو ابن عصره، ولكنه ما زال حاكماً على عصرنا وطريقة تعرفنا إلى القرآن، ولننظر إلى التفاسير الأكثر تداولاً اليوم، الطبري (٣١٠هـ)، والقرطبي (٦٧١هـ)، وابن كثير (٧٠٠ ـ ٧٧٤هـ)، وتفسير **الجلالين** (٨٦٤ ـ ٩١١هـ).

ولنحاول أن نختار آية رائعة من كتاب الله، وكله جمال، ونرى طريقة تفسيرها في ضوء ما علمناه من علاقة القرآن بالعلم:

لنأخذ الآيتين ٢٧ ـ ٢٨ من سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾، ونقرأ التفسير سنجد القرطبي يقول: «العلماء بقدرته. . . إنما الفقيه من يخاف الله»، ونجد ابن كثير يقول: «من لم يشرك بالله شيئاً وأحل حلاله وحرم حرامه»، ونجد تفسير **الجلالين** يقول: «العلماء بخلاف الجهال ككفار قريش».

ها هو المعنى الذي يتحدث عن معارف في علم الأرصاد وعلم الزراعة وعلم الجيولوجيا وعلم الحيوان، يُختزل في الفقيه وفضائه.

ها قد نحتنا معنى ذا قامة قصيرة في العقل بدلاً من القامة السامقة التي يطرحها النص القرآني، ومع انتشار الكتب السابقة ونظائرها وكثرة الراجعين إلى المعاني فيها، واستخدام الخطباء والوعاظ للتعريفات ذاتها، وانتشار ذلك بين طلبة العلم الشرعي كان الناتج متوقعاً.

إن الأسئلة التي يطرحها الشباب، وهم في كلياتهم التطبيقية، ورغبتهم الملحة في الهروب منها إلى الدراسات الشرعية، هي جزء من تفسير العلم المتداول في كتبنا التراثية ولنأخذ مثالاً معبراً لتتضح الصورة:

أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفي، قال: حدثنا عبد الأعلى ابن حماد، قال: حدثنا عبد الله بن داود الخريبي، قال: سمعت عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن

كثير ابن قيس، قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدرداء، إني أتيتك من مدينة الرسول في حديث بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله (ﷺ)، فقال أبو الدرداء: أما جئت لحاجة، أما جئت لتجارة، أما جئت إلا لهذا الحديث؟ قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله (ﷺ)، يقول: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، والملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وأورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» قال أبو حاتم (رضي الله عنه): **في هذا الحديث بيان واضح أن العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرنا، هم الذين يعلمون علم النبي (ﷺ)، دون غيره من سائر العلوم.** ألا تراه يقول: «**العلماء ورثة الأنبياء**» والأنبياء لم يورثوا إلا العلم، وعلّم نبينا (ﷺ) سنته، فمن تعرى عن معرفتها لم يكن من ورثة الأنبياء.

هكذا آل أمر السقف القرآني العظيم لفهوم المفسرين، وأصبحت هذه التفسيرات حكماً على القرآن، ونظّارة تعيد تلوين النص القرآني وتعيد تعريفه، ولكن تأثير ذلك بالغ في علاقة الإنسان المسلم بالعلم. ولو أضيف إليها فكرة علاقة العقل بالنقل وعمليات الصراع التي انتهت باتهام العقل بالعجز والقصور وبوجوب وقف التساؤل؛ لأنه يقود إلى الضلال، تكون حلقة العلم أصبحت ضيقة جداً.

ثانياً: مفهوم العمل الصالح ماذا حدث له

يشتكي العاملون في مجالات الثقافة وحقوق الإنسان وسائر المناشط أنهم حين يطلبون عون التاجر العربي، يفاجئهم بسؤال تقليدي: هل نشاطكم فيه تحفيظ قرآن أو رعاية أيتام أو حفر آبار للمحتاجين؟ فإن قالوا: لا... اعتذر بأنه لا يموّل إلا هذا النوع من النشاط فهو يرجو الأجر والثواب!

وحين ننظر إلى فكرة العمل الصالح في القرآن نجدها متسقة مع مهمة الإنسان في الأرض... فالإنسان وُجد لإعمار الأرض: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وأن الملائكة تتوقع من المخلوق الجديد أن لا يسفك الدماء ولا يفسد في الأرض، ومن هنا أبدت تساؤلها على خلق آدم فقد وجدته لحكمة يعلمها الله قادراً على سفك الدماء والإفساد في الأرض: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومن هنا كانت مهمة الإنسان في الأرض هي الإعمار: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، والعمار من الحياة فمطلوب من الإنسان أن يعمر الأرض ببث الحياة والنماء فيها. ومهمة النماء وإعمار الأرض في الإسلام لها وجه متصل بالسماء قوامه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ أي: يؤمنون بالله وبالحساب... فهم عائدون إليه: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ووجه متصل بفعل الأرض من أداء الشعائر والآفاق من المواهب الربانية التي أعطيت للإنسان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، فجهدهما العقلي والبدني يصرفان في أداء حق الله وحق إعمار الأرض في مقابل حسنة الدنيا وحسنة الآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، عمران وحياة

كريمة. ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ أي الجنة... هكذا يصوغ القرآن علاقة الإنسان بالسماء وبالأرض.

وحين ننظر إلى أنواع العمل التي ذكرها القرآن؛ لإعمار الأرض، وعدّها من الصالحات نرى مساحة واسعة شملت:

نوع العمل	الأمثلة من القرآن
السياسي	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]
الزراعي	﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥]
المهني	﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]
الصناعي	﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١]
الوظيفي	﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠]
الفكري والتربوي	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]

والسؤال كيف تَوارى المعنى القرآني من الأذهان وأصبح يحتاج إلى بيان... ونحن قد شرحنا جزءاً من علاقة الإنسان المسلم بالعمل في كلامنا عن الاعتقاد وإشكالياته، ومن بعدها شرحنا الإشكاليات التي خلقها فقه التزكية من نظرية الانسحاب من الحياة، والآن لننظر إلى كتاب التفسير لنرى دور المفسِّر في المشهد:

ولنأخذ نموذجاً لتفسير كلمة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في سورة العصر:

فالطبري سيقول لنا: «أدَّوْا ما لزمهم من فرائض واجتنبوا ما نُهي عنه من معصية».

ويزيد القرطبي الأمر تفصيلاً: «خُسْر؛ تعني: أبا جهل، وآمنوا؛ تعني: أبا بكر الصديق، وعملوا الصالحات تقابل عثمان، والصبر تقابل علي».

وابن كثير يقول لنا: «أداء الطاعات وترك المحرمات».

فالمفسِّر في عموم التفاسير، عندما يصل إلى فكرة العمل الصالح لا يقدّم نظرية الدين عن العمل ووظيفته في إعمار الكون بل يعمد إلى الإجمال، فيحدّثنا عن أداء الطاعات وترك المحرمات، ويترك للقارئ أن يأتي بالأمثلة، وبما أن الواعظ يريد أن يأتي بنصوص حرفية دالة على المراد، فهو لا يستحضر تنوّع النص القرآني بل سيعمد إلى الأحاديث المجموعة في العمل الصالح غالباً من كتب التزكية، وهذه النصوص التي تسعفه ستكون في بناء المساجد وإطعام الأيتام والمسح على رؤوسهم وإعطاء الفقير وبر الوالدين... وهكذا ستتكرر الأمثلة

ذاتها حتى يصبح العقل المسلم عندما يسمع عنوان الخطبة في يوم الجمعة والعمل الصالح لا يستدعي إلا تلك الأمثلة، ويزداد الطين بِلة حين يعمد الخطيب إلى قصص الصالحين كأمثلة، وقد رأينا الإمام الغزالي وأمثلته، وسنجد بقية الكتب التراثية تتناول ذلك بأشكال مختلفة في سعي دؤوب لصرف الإنسان عن الدنيا، وتوجيهه إلى الآخرة، فهناك العباد الذين يقومون الليل لا يفترون وينتظرون الشروق مسبحين ويصومون النهار ويقرؤون القرآن، وكلّها أعمال صالحة ولكن حين لا يعود في الحياة إلا إياها تنهار الحياة، فأين الصانع في مصنعه؟ وأين العامل في مزرعته؟ وأين الباحث في معمله؟ وأين التلميذ في مدرسته؟ وأين الأستاذ في صفه؟ وأين العامل في ورشته؟.. كل هؤلاء يغيبون من فعل الصلاح لأن ذلك من أعمال الدنيا وليس من اهتمامات الدين كما تصور البعض الغالب... فلم يكن غريباً أن تنهار الحضارة الإسلامية التي لم تستطع أن تخلّق نظرية شاملة متداولة مستحضرة في العقل الجمعي لعلاقة الدنيا بالآخرة؛ فبقيت الصورة متذررة كما هو الحال في كثير من أمورنا، وبالتالي تمّ الخروج من سباق الحياة بفعل سوء النظر إلى النص القرآني ابتداء وتغليبه على ما سواه.

ثالثاً: مفهوم العدل ماذا حدث له؟

حين نذكر مفهوم العدل بمعنى القسط نراه مفهوماً واسعاً في النص القرآني:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

والميزان: أصله اسم آلة الوزن، والوزن تقدير تعادل الأشياء وضبط مقادير ثقلها، وشاع إطلاق الميزان على العدل باستعارة لفظ الميزان للعدل على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس.

فهناك نظام تعادلي كوني تتساوى فيه الأشياء في أصل خلقتها، ومن هنا كان ميزان الصلاح في الأرض إرسال الرسل ومعهم قانون العدل: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالمطلوب من كل الناس أن يقيموا حياتهم على مبدأ العدل.

ومن هنا أمر الرسول بالعدل بين الناس: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

ومن هنا كان في كل عصر أمة العدل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وقد فصّل القرآن في موضوع العدل:

* كالعدل بين الزوجات: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

* وبالعدل في التعامل مع العدو منعاً للتحامل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

* والعدل في التعامل مع الأقارب منعاً للمحاباة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

* والعدل في القول والفعل: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

* والعدل في التعامل التجارى والشهادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* وفي العدل في النزاعات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

* ومأمورون بالأمر بالعدل مطلقاً: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

ولارتباط القرآن الكريم بالعدل في تشريعاته فقد كان تمام نزوله إتماماً للعدل وتشريعات العدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فالعدل في القرآن سقف عالٍ يشمل السماوات والأرض ويشمل كل شيء واليوم أصبح ميزان العدل ميزاناً بشرياً عاماً في مواثيق حقوق الإنسان وأصبح ثقافة عالمية.

ولو أردنا المقارنة بين سقف القرآن وسقف المفسر لموضع العدل حين يعبّر عنه، سنجد ظلاً للمعنى وسيغيب المعنى على الرغم من عظم مسؤوليته القرآنية في عبارات تصوغ سقيفة بدل السقف القرآني السامق ولنضرب مثلاً بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

مقاربة ابن كثير مختصرة:

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال سفيان ابن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته.

تفسير الجلالين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ التوحيد أو الإنصاف، ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أداء الفرائض أو أن تعبد الله كأنك تراه كما في الحديث.

تفسير الطبري

الْقَوْل فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى: يَقُول تَعَالَى ذِكْره: إِنَّ الله يَأْمُر فِي هَذَا الْكِتَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْك يَا مُحَمَّد بِالْعَدْلِ، وَهُوَ الْإِنْصَاف؛ وَمِنْ الْإِنْصَاف: الْإِقْرَار بِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعْمَتِهِ، وَالشُّكْر لَهُ عَلَى أَفْضَاله، وَتَوَلِّي الْحَمْد أَهْله.

وهكذا مع تكرار الحديث عن الموضوع بهذه الطريقة لا يبقى من المعنى الكوني المترابط لمعنى العدل القرآني إلا ظلال باهتة المعنى.

رابعاً: الكرامة الوجودية الإنسانية ماذا حدث لها؟

الإنسان في القرآن كائن مختلف عن بقية الموجودات، لسبب يعلمه الله فهو مكرّم بأصل خلقته ومحلّ عناية لا تخطئها العين. وتكريمه بدأ مع خلقه فزوّد المخلوقات الأخرى بملكة نوع من العلم جعله أهلاً لإعمار الأرض والاستخلاف فيها، وحاجّ الخالق الملائكة بعلم آدم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٢]، وبتوضيح الدور والمهمة والتزود بآلة التلقي والاختيار وقابلية العلم جاء وقت إعلان التكريم الكوني:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ثم أنزله إلى الأرض ولم يتركه إلا ومعه كتاب الهداية: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]، وقبل توبته ووعده بكثرة التوبة على جنسه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وجاء الإنسان إلى الأرض وكل شيء مصنوع على شاكلته ويستجيب لقدراته؛ فالهواء والماء والمادة والحيوان والنبات كلها طيّعة بين يديه وقابلة لفك أسرارها بعمله العقلي والعلمي، ثم جعل عنده معرفة قابلة لاستكشاف المقولات العقلية والمفاضلة بينها فولّد المفاهيم وطوّرها... لقد كُرّم بكونه إنساناً فنزلت الكتب السماوية بالعدل وبالشرائع التي تحقّق له كرامته الوجودية... وجعله بملكة الاختيار أهلاً للمحاسبة فرداً... ورفعه إن نجح في الاختبار للفردوس الأعلى... هكذا اتسع معنى الكرامة الإنسانية في النص القرآني وعلا سقفه فكيف عالجه المفسر؟

وحتى نعرف ذلك لننظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولننظر إلى الشيخ المفسرين الطبري يشرح سبب التكريم:

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمهم إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ﴾ [التين: ٤]؛ أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

وحين نجول في التفاسير نجد كثيراً من العبارات الجيدة، ولكنها لا تشكل نسقاً معرفياً، بل تذررٌ كامل جعل الصورة تبدو مرتجّة في عقل المتلقي، ولم يتعمق المفسر في تحليل وجه التكريم وتعليل أفضلية هذا الوجه وتقرير مقتضيات هذا التكريم الوجودي للإنسان على السياسة والاقتصاد والاجتماع... ربما لم تكن تلك مهمة المفسر الذي كان ينقل المأثور في عصر كان ذلك كافياً لأهله في حركة الحياة الراكدة مقارنة بعصرنا... أما اليوم فالوضع مختلف ومفهوم الكرامة الإنسانية اكتسب أبعاداً إنسانية يقود إهمالها إلى كوارث لا حصر لها في حياة الأمة.

خامساً: التعارف الإنساني الكوني ماذا حدث له؟

هذا الكون فيه المسلم والكافر وفيه تنوع عرقي وديني ومذهبي ومصالح البشر متداخلة فالناس تبيع وتشتري وتسافر وتهاجر فما هي علاقة البشر ببعضهم بعضاً؟ يرسم القرآن سقفاً عالياً، حين يخبرنا بأصل هذه العلاقة، وجذرها هو التعارف الكوني: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فكل هذا التنوع يحتاج إلى أن يعرف بعضه بعضاً وأن يتواصل

والتعارف هنا عميق؛ لأنه ما يصل البشر حقيقة معرفة علومهم وعاداتهم وتقاليدهم وجملة ثقافاتهم ومعرفة اقتصادهم وصناعاتهم وزراعتهم وسائر ما عندهم، وتعريفهم بما عندنا من علم وصناعة وزراعة ومنتجات والبحث عن القواسم المشتركة التي يمكن على أساسها بناء المنافع لعمار الكون وحفظ الحياة المشتركة فيه، ولكن ماذا يحدث للمعنى عندما نتلقاه من المفسّر لنرى شيخ المفسرين ابن جرير الطبري يشرح.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

«الْقَوْل فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، يَقُول تَعَالَى ذِكْره: يَا أَيّهَا النَّاس إِنَّا أَنْشَأْنَا خَلْقكُمْ مِنْ مَاء ذَكَر مِنْ الرِّجَال، وَمَاء أُنْثَى مِنْ النِّسَاء. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل. ذِكْر مَنْ قَالَ ذَلِكَ... وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، يَقُول: وَجَعَلْنَاكُمْ مُتَنَاسِبِينَ، فَبَعْضكُمْ يُنَاسِب بَعْضاً نَسَباً بَعِيداً، وَبَعْضكُمْ يُنَاسِب بَعْضاً نَسَباً قَرِيباً؛ فَالْمُنَاسِب النَّسَب الْبَعِيد مَنْ لَمْ يَنْسُبهُ أَهْل الشُّعُوب، وَذَلِكَ إِذَا قِيلَ لِلرَّجُلِ مِنْ الْعَرَب: مِنْ أَيّ شَعْب أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مِنْ مُضَر، أَوْ مِنْ رَبِيعَة. وَأَمَّا أَهْل الْمُنَاسَبَة الْقَرِيبَة أَهْل الْقَبَائِل، وَهُمْ كَتَمِيم مِنْ مُضَر، وَبَكْر مِنْ رَبِيعَة، وَأَقْرَب الْقَبَائِل الْأَفْخَاذ وَهُمَا كَشَيْبَان مِنْ بَكْر وَدَارِم مِنْ تَمِيم، وَنَحْو ذَلِكَ، وَمِنْ الشَّعْب قَوْل اِبْن أَحْمَر الْبَاهِلِيّ: مِنْ شَعْب هَمْدَان أَوْ سَعْد الْعَشِيرَة خَوْلَان أَوْ مَذْحِج هَاجُوا لَهُ طَرَبَا وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي مَعْنَى قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، قَالَ أَهْل التَّأْوِيل....

عَـنْ قَـتَـادَة ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، قَـالَ: الـشُّـعُـوب: النَّسَب الْبَعِيد، وَالْقَبَائِل كَقَوْلِهِ: فُلَان مِنْ بَنِي فُلَان، وَفُلَان مِنْ بَنِي فُلَان.... وَقَوْله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، يَقُول: لِيَعْرِف بَعْضكُمْ بَعْضاً فِي النَّسَب».

هكذا وقف المعنى على التعارف العربي وأصبح مفهوم الناس هو مفهوم العرب وأهل الجزيرة منهم... مرة أخرى حين يقرأ الإنسان هذا المعنى ويترسخ في ذهنه سقف المفسر يفقد النص القرآني سقفه في الوعي الجمعي الذي يتلقى من كتاب التفسير لا من القرآن ويتقاصر الفضاء الذي يحلق فيه ويضيق.

أخيراً

لا تقف مشكلة التفسير عند تقزّم المفاهيم، ولكنها تمتد إلى مشكلة أكبر وهي في تذرر المفاهيم، فكل آية تفسّر على حِدتها، ولا توضع في نسق جامع يربط بينها في نظرية عامة... فمثلاً حين ننظر إلى موضوع الحرب والسلم سنجد أن كل آية تُفسر على حِدتها مما يقود إلى استنتاجات كارثية... وعلى الرغم من محاولات بعض المعاصرين الكتابة في التفسير الموضوعي... بضم الآيات ذات الموضوع الواحد إلى بعضها ومحاولة ربط النسق إلا أن الجهود ما زالت قاصرة ولم يصبح هذا النوع من التفكير شائعاً.

إن علاج كل ذلك يحتاج إلى جهود جبارة، لا تقف عند القيام بالعمل العلمي، ولكن تنتقل لتتحول إلى مشروع حضاري،

بمعنى أن تتحول أنماط التفكير الجديدة إلى نمط شائع مستقر في البيئة العربية والإسلامية.

خاتمة

معرفة العصر

في أيام الصبا وفي جلسة علمية مع أحد شيوخنا عن تقدم الأمم الأخرى وقوّتها بدا أن الشيخ ممتعض من النقاش وعلّق على النقاش بقوله: لا تنبهروا بالأمم الأخرى فنحن لو تجمعنا ووجدت قوة الإيمان سنهزمهم ولو بالعصي!!!

هل هو هروب من الواقع أو جهل به أو توقع بحدوث معجزة تقلب الموازين أو هو كل ذلك مجتمعاً... تلك هي القصة مع كثير ممن تلقاهم وليس الجميع، وتلك العقلية سارية في قطاعات واسعة من الشباب العربي والمسلم... فهي تهرب من استحقاقات الواقع لأن الاعتراف به يوقعها في العجز وهي تفضل أن لا تتعرف إليه بعمق، حتى لا تضطر إلى رؤية الفجوة العملاقة التي تفصلها عن العصر وهي باستمرار، حين يدور السؤال عن ممكنات الإنسان، تحيل السؤال إلى مكنات الخالق فأنت تسأل شخصاً ماذا ستفعلون في القضية الفلانية فتكون الإجابة: الله قادر على كل شيء تلك هي الصيغة المبطنة لقصور

الرؤية وطرق العلاج المقنعة والتعويل على المعجزة والأمر الاستثنائي، وكم من كارثة كبرى تمت وستتم بسبب هذا النمط من التفكير؟

إن إحداث تحوُّلٍ حقيقي في المشهد يعني معالجة القضايا العقلية التي أنتجته، وقد مررنا على كل ذلك في الفصول السابقة، ولكن لا يمكن المرور على المشكلة من دون معرفة طريقة إعداد الدعاة اليوم؛ ففي ضوء نظرية الاستعلاء وبقايا نظرية سيّد في العزلة، تفضل التيارات الإسلامية أن تنقي برامجها من العلوم الإنسانية ولا ترى لها مكاناً فيعيش الإنسان السنين الطوال يقرأ الكتب ذاتها للشخصيات ذاتها التي ربما تجاوزها الزمن، وهي بقايا حقبة كان هدف العمل فيها دفع الأفكار المحيطة والوافدة، لا تفهّمها والانتفاع بها، فكل ما صنعه العالم ما عدا العلوم التطبيقية فعندنا ما هو أفضل منه ولسنا بحاجة إليه فلا التاريخ ولا الاجتماع ولا الفلسفة ولا المنطق ولا التفكير الناقد ولا قضايا التنمية ولا قضايا الحضارة، من وجهة نظر أخرى غيّر ما يطرحه قطب مثلاً عن الحضارة، ولا الأطروحات الكبرى في هذا العصر تدرس لتُفهم، ولكن لبيان نقصها، ثم تقديم لا شيء عوضاً عنها سوى عبارات عامة لا تسمن ولا تغني من جوع، سرعان ما تنكشف عند أول اختبار عملي، كما حدث في تجارب الحكم المختلفة والأطروحة السياسية... إن فهم العصر كما هو جزء من حسن الحكم عليه وعلى الشباب أن يأخذ العلم من مظانّه وليس بعيون من يقوم بالحجب والتمرير فلا يبقي من الأصل شيئاً ذا فائدة.

إن الحل العملي لهذه المشكلة هو في حسن إعداد الدعاة؛ لفهم العصر أولاً، ثم فهم الشريعة ككل بدل فهمها مجزّأة من دون نظرية تجمع متفرقاتها، ومن مزدوج فهم العصر وفهم الشريعة يولد عصر الإسلام القادم.

ها نحن استعرضنا مساراً طويلاً، صُنع منه التراث وصنع واقع الأمة اليوم، فكل قضايا السطح وقضايا التنظيمات وأفكار المؤسسين ترجع إلى قضايا العمق سواء في استنباطها أو التدليل عليها. كل ذلك في محاولة لبيان وجه التحديات التي تحتاج الأمة إلى أن تجد حلولاً لها لو أرادت التقدم والرقي، فمسارات التقدم لا تنفتح وإنسان المنطقة يعتقد أن الواقع القديم قد أجاب عن أسئلة السياسة، وكل ما يحتاج إليه هو أن يسترجع ذلك التراث أو ينقب فيه، فذلك وعي مغلوط بالتاريخ، وكل أسئلة السياسة الكبرى لم تنجح العصور الوسطى في أن تجيب عنها، ولكنها نتجت من تفكُّر إنسان هذا العصر في قضاياه بعد صراع مرير مع القرون الوسطى ومسلّماتها، فالحلّ ليس موجوداً في الماضي، ولكن الحلّ في ما انتهى إليه الإنسان وتطويره... وإبداع إجابات من داخل التراث أمر صعب التخيّل بسبب إشكاليات موضوعية متعلقة بأربع مشاكل كبرى:

١ ـ مشكلة المدخلات الحديثية.

٢ ـ مشكلة الأدوات الأصولية التي بين يدي الفقيه وطريقة إعداده.

٣ ـ مشكلة إنسان المجتمع والأرضية الاجتماعية الناشئة عن فكرة الجبر وظلالها.

٤ ـ مشكلة تشوّه العلاقة بالدنيا وفكرة العزلة.

٥ ـ مشكلة تقزّم قامة المفاهيم في العقل الاجتماعي.

إن شأن استنهاض مجتمعات الركود ليس أمراً هيناً، وعملية الإقلاع تعني فك القيود التي أنشأت الركود ابتداءً، والمجتمعات العربية مسكونة بصراعات السطح وبفكر التنظيمات التي تتعاطى مع هذا السطح وتشكل جزءاً منه، وفي العمق هي مكبّلة بقضايا التراث التي قصرت عن بلوغ سقف الإسلام، ومهمة علاج قضايا السطح، وقضايا التنظيمات بالضرورة تقود إلى ذلك العمق الدفين من إشكاليات المناهج وقصورها.

واليوم أكثر من أي وقت مضى، نحتاج إلى مراجعات كبرى لإعادة النظر في مجمل الأرضية الفكرية التي نقف عليها فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

مشاريع كبرى في افتتاحية عصر جديد

تشهد ساحة التجديد اليوم حركة نشطة سيكون لها ما بعدها، ففي التجديد الأصولي يقف على رأس القائمة العلامة عبد الله بن بيه. وفي تجديد المقاصد يقف الدكتور أحمد الريسوني. وفي المعجم اللغوي للقرآن يقف العلامة الشاهد بو شيخي. وفي علوم الحديث يقف الدكتور محمد عمراني

حنشي. وفي مجال التفسير وفي مجال الفقه السياسي تتوالى المحاولات وقد يحدث الله من بعد ذلك أمراً.